معروف هو الرفض والصدّ عن سبيل الله تعالى ، هذا الى أنه يبدو أن الآية الكريمة شاملة لكل القرى • ويزيد كفار مكة على غيرهم أن موقفهم وقت نزول القرآن الكريم غاية فى السوء ، فليس ما يستحقونه فى الحال بمختلف عما يستحقونه مستقبلا •

وفى امكاننا أن نقول عن هذه الآية الكريمة ، انها تدل على علم الله تعالى التام وليس الزمن جزءا من ذلك العلم ، وعلى قدرته عز وجل المطلق وكأنها لذلك تلتقى فى هاتين الصفتين مع هذه الآية الكريمة التى مرت بنا من قبل • قال تعالى : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ وانّ المصير المؤلم لكل القرى مستقبلا وتركيز سبب الإهلاك فى افساد المترفين ، يحملاننا على الوقوف على هذه الآية الكريمة من سورة يونس[1] التى تلقى شيئا من الضوء على بعض جوانب المسألة قال تعالى : ﴿ انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى اذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ ويحملاننا كذلك على الوقوف على قوله تعالى[2] : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ •

وانّا لنتساءل : هل انتفع كفار مكة من كل هذه الآيات القرآنية البينات ؟ والجواب بنص القرآن الكريم هو أنهم لا يزدادون الا عنادا واستكبارا ، ويتخطون الرفض لأكبر الآيات الدالة على قدرة الله تعالى المطلقة ووحدانيته ، وهى القرآن الكريم ، كتاب الله تعالى الخالد ، الى طلب آيات أخرى مادية محسوسة ، محدودة بزمن معين ومكان معين وأناس معينين • بينما القرآن الكريم تتدبره كل الأمم فى كل الأزمنة • والعجيب فى أمر مشركى مكة أنهم يطلبون هذه الخوارق من باب التحدى وليس بقصد أن يؤمنوا ، والى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة الأنبياء[3] : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ،

---

(١) آية ، ٢٤ .
(٢) آية ، ١١ من سورة الرعد .
(٣) آية ، ٥ ، ٦ .

فليأتنا بآية كما أرسل الأولون • ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ وبسبب ذلك ولأنه عز وجل لم يشأ إهلاكهم فى الحياة الدنيا ، لم يكب طلب يتعلق بالخوارق التى اقترح مشركو مكة • وقد أشارت الآية التالية الى ذلك التعليل • قال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات الا أن كذب بها الأولون ، وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات الا تخويفا ﴾ •

وانما استدلت الآية الكريمة بثمود قوم صالح عليه السلام الذين عقروا الناقة بغيا بينهم ، لأنهم غير بعيد مكانا من قبيلة قريش ، ولأن القرشيين فى أسفارهم ، وبخاصة فى رحلة الصيف الى الشام يمرون على ما تبقى من ديار ثمود الذين انتقم الله تعالى منهم بسبب تكذيبهم للآية التى تحققت باذنه تعالى على يد صالح عليه السلام تلبية لرغبتهم •

واذا كان كفار مكة حمقا منهم واستهتارا لا يفكرون فى عاقبة تكذيبهم للآيات التى طلبوا لو فرض أنها تحققت ، أليسوا هم الذين جاء عنهم قوله تعالى[1] : ﴿ واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ فان ارادة الله تعالى شاءت أن يجتبى منهم ومن ذرياتهم مؤمنين[2] : « عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا أن يجعل لهم الصفا ذهبا • وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعون • اقترحوا ذلك على الرسول صلى الله عليه وسلم فأوحى الله اليه : إن شئت أن أفعل ذلك لهم ، فان تأخروا عاجلتهم بالعقوبة وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أجتبى منهم مؤمنين فقال : بل تستأنى بهم يارب فنزلت » •

واذا كانت ارادة الله تعالى لم تشأ إهلاك مشركى مكة ، خلافا لمكذبى الرسل السابقين ، وبالتالى لم تلب طلباتهم بشأن الآيات المحسوسة والخوارق المادية ، فان ثمة آيات أخرى غير التى طلبها مشركو مكة يرسل بها عز وجل دائما وأبدا بقصد تخويف المشركين وحملهم على العودة الى بارئهم عز وجل • وهذه الآيات تتمثل فى الصواعق والرياح الحاصبة والقاصفة ، وفى السيول الجارفة والفيضانات وفى الزلازل

---

(١) الانفال ، ٣٢

(٢) البحر المحيط ، ٦ / ٥٣ .

والبراكين وما الى ذلك • والى هذا النوع أشار قوله وتعالى :﴿ وما نرسل بالآيات الا تخويفا[1] ﴾ قال ابن عطية : وآيات الله تعالى المعتبر بها ثلاثة أقسام : قسم عام فى كل شىء ، اذ حيثما وضعت نظرك وجدت آية • وهنا فكرة العلماء • وقسم معتاد ، كالرعد والكسوف ونحوه ، وهنا فكرة الجهلة فقط • وقسم خارق للعادة وقد انقضى بانقضاء النبوة » •

ومما هو موضح للآية الكريمة قوله تعالى فى سورة الحجر[2] : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون ، لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين • ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذن منظرين • انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى فى سورة يونس[3] :﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يومنون • ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم • فلولا كانت قرية آمنت فنفعها ايمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾ •

واذا كانت الإشارة للآيات التى طلب مشركو مكة موجزة ، ففى موضع آخر من هذه السورة بعض تفصيل لهذه الآيات المادية والخوارق[4] واذا كانت الآية الكريمة تدل على علم الله تعالى التام وقدرته المطلقة فان الآية الكريمة التالية تدل على ذلك أيضا إضافة الى الرغبة فى التسرية عن المصطفى صلى الله عليه وسلم وتسليته • قال تعالى :﴿ واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ، وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا ﴾ •

ومعنى القول فى الآية :﴿ واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ﴾ أى أحاط الله عز وجل بكل الناس علما وقدرة ، فلا علاقة للزمن مطلقا بعلمه تعالى ولا تحد قدرته ، ولكنه حليم يمهل ولا يهمل • ومما أحاط به علمه عز وجل موقف كفار مكة مستقبلا من إخبار المصطفى صلى

---

(١) البحر المحيط ، ٦ / ٥٣ .
(٢) آيات ، ٦ — ٩ .
(٣) آيات ، ٩٦ — ٩٨ .
(٤) آيات ، ٩٠ — ٩٣ .

الله عليه وسلم لهم بأنه أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ثم العروج به الى السماوات العلى ، يحدث كل ذلك فى جزء قصير من ليلة واحدة ، كما أحاط علمه عز وجل بموقف هؤلاء مما جاء ذكره فى سورة الصافات مثلا[1] قال تعالى[2] : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، انا جعلناها فتنة للظالمين . انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم . ثم ان مرجعهم لالى الجحيم ﴾ .

لقد كان كل من حادث الاسراء والمعراج والإخبار عن طبيعة هذه الشجرة التى تخرج فى قاع الجحيم ، بمثابة الفتنة لكثير من ضعيفى الايمان فضلا عن الذين لم يؤمنوا أساسا . لأنهم يسمعون عن كل كلاما ليسوا مهيئين أساسا لفهمه . ففيما يتصل بالإسراء والمعراج[3] « قال الكفار ان هذا لعجب . نخب إلى بيت المقدس شهرين إقبالا وإدبارا ويقول محمد جاءه من ليلته وانصرف منه . فافتتن بهذا التلبيس قوم من ضعفاء المسلمين فارتدوا وشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية . فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله : واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ، أى فى إضلالهم وهدايتهم وأن كل واحد ميسر لما خلق له . أى فلا تهتم أنت بكفر من كفر ولا تحزن عليهم ، فقد قيل لك إن الله محيط بهم مالك لأمرهم . وهو جعل رؤياك هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر . وسميت الرؤية فى هذا التأويل رؤيا ، إذ هما مصدران من رأى . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه قال هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به والشجرة الملعونة شجرة الزقوم[4] وانما سمى الإسراء والمعراج رؤيا لوقوعه فى الليل وسرعة تقضيه كأنه منام[5] .

وفيما يتصل بشجرة الزقوم فإنه لما نزل أمرها فى الصافات وغيرها قال أبو جهل وغيره : هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت الشجر ، والنار تأكل كل الشجر . وما نعرف الزقوم الا التمر

---

(١) وانظر سورة الدخان ٤٣ — ٤٦ .
(٢) الصافات ، ٦٢ — ٦٨ .
(٣) البحر المحيط ، ٦ / ٥٤ .
(٤) صحيح البخارى ، ١٠٧/٦ .
(٥) البحر المحيط ، ٥٤/٦ .

بالزبد ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمرا وزبدا وقال لأصحابه تزقموا • فافتتن أيضا بهذه المقالة بعض الضعفاء[1] •

وانما وصفت الشجرة بأنها ملعونة لأن آكليها تلك طبيعتهم • واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى والإبعاد • فبما أن المجرمين مطرودون من رحمة الله تعالى وملعونون ، لذلك كان طعامهم من جنسهم •

وه مظاهر التسرية عن المصطفى صلى الله عليه وسلم أن الآية الكريمة تستعمل جملة قلنا : ﴿ واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ﴾ وكأننا نحس بأن مكان الذى يوجه اليه الخطاب ليس ببعيد من مخاطبه بعكس مثل هذا القول : واذ أخبرناك أو واذ أوحينا لك • واذا أمكن لنا القول إن مثل هذا التعبير واذكر يا محمد اذ قلنا لك أن ربك أحاط بالناس ، استطعنا أن ننتهى الى أن الجملة المحذوفة المفهومة معمقة لهدف تسلية المصطفى صلى الله عليه وسلم • وينبغى أن يكون للفظ رب فى الآية الكريمة الدور ذاته • ويضاف الى كل ما سبق أن عودة السورة المباركة للحديث عن الاسراء الذى ابتدأت به ، فيها شىء كبير من الراحة له صلى الله عليه وسلم على اثر إنكار مشركى مكة لحقيقة الإسراء والمعراج •

وفى امكاننا القول : إن هذه الجزئية الكريمة : ﴿ واذ قلنا لك ان ربك أحاط بالناس ﴾ تؤدى الدور الذى يؤديه مثلا قوله تعالى[2] : ﴿ فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى[3] : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ وقوله تعالى[4] : ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ • وان شيئا قريبا من هذا يقال عن الجزئية الأخيرة فى الآية الكريمة والتى هى بمثابة التعقيب على الجزئيتين السابقتين : ﴿ ونخوفهم فما يزيدهم الا طغيانا كبيرا ﴾ وهى تسير فى جوهرها وفق الروح الذى تبيناه فى المجموعة السابقة من الآيات والذى يمكن أن نسميه رد الفعل المتعالى • إن التخويف مراد فى هذه الآية الكريمة وفى الآية السابقة

---

(١) المحيط ، ٦/٥٥ .
(٢) الرعد ، ٤٠ .
(٣) الكهف ، ٦ .
(٤) القصص ، ٥٦ .

أيضا : ﴿ وما نرسل بالآيات الا تخويفا ﴾ ولكن النتيجة بعكس المراد تماما ، إنها الطغيان ، بل الكبير منه .

أما وأن ارادة الله تعالى لم تشأ تحقيق طلبات مشركى مكة بشأن الايات المادية والخوارق لأن القوم لم يطلبوا الا بقصد التلهى والعبث ، ولأن بين أيدى القوم معجزة الاسلام الكبرى الخالدة ألا وهى القرآن الكريم الذى يهدى للتى هى أقوم . وما دامت المعجزة الكبرى موجودة دائما وأبدا فلا قيمة لما يقل من المعجزات منزلة ويقتصر على فترة معينة .

وينبغى أن نقرر حقيقة غاية فى الأهمية هى أن المعجزات التى نص عليها الذكر الحكيم كالاسراء والمعراج وشجرة الزقوم وما إلى ذلك أصبحت جزءا من القرآن الكريم الذى يجب الإيمان بكل ما جاء فيه .

(١٢)
تحذيرٌ مِنْ إبليس اللّعين

بعد أن نصّت سورة الإسراء على أن الموقف الذى وقفه أهل مكة من الإسراء والمعراج وشجرة الزقوم ، إنما كان بعلمه عز وجل وإرادته فلا ينبغى للمصطفى صلى الله عليه وسلم أن تذهب نفسه حسرات لموقف المكذبين منه ، ثم الانتقال الى تبيين موقف إبليس اللعين من أبينا آدم عليه السلام وقد أمره بالسجود لآدم الذى خلقه رب العزة بيديه • وفى قصّ تحدّى إبليس اللعين لإرادة الله تعالى ورفضه أمره عز وجل بالسجود لآدم عليه السلام سُجُودَ تحيّة وإجلال ، تسلية له عليه الصلاة والسلام • وكأنّ القصّة تقول له : إنّ الذى يقوم به مشركو مكة بإغراء من الشيطان الرجيم ، انما يتم بعلمه عز وجل وإرادته بعد أن سُلِّحَ الانسان بسلاحى العقل والإرادة وهُدِىَ النجدين ، طريق الخير وطريق الشر كى يتبع الأول ويهجر الثانى • وانما سمح عز وجل للرجيم أن يقوم بمحاولته إغواء عباد الله تعالى كى يتبين عباد الرحمن الذين وعوا كلام الله تعالى وكلام رسوله الأمين ، فاستعاذوا بالله من الشيطان الرجيم وآمنوا بالآخرة وعملوا من أجلها ، ويتبين الذين صدّق عليهم ابليس ظنّه فاتبعوه وكانوا من الآخرة فى شك وعملوا بعمل أهل النار فوردوها. وإنّ مشركى مكة من الفريق الثانى الخاسر . هذا بالإضافة الى أنهم يتصرفون بدافع حسدهم للمصطفى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين • وبهذا هم يشتركون مع الشيطان الرجيم فى صفة الحسد هذه • قال تعالى : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا • قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا • واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا • ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ •

وأوّل ما يلاحظ على الآية الكريمة الأولى ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ﴾ أنها تبدأ بما بدأت

به الآية السابقة الذي قلنا عنه إنه مسعف للتسلية على أن تقوم بدورها خير قيام ، فنحن إذن بصدد رباط لفظي ومعنوى يربط هذه المجموعة من الآيات بما سبقها • كما يلاحظ أن فى الآية الكريمة كلاما محذوفا مفهوما من المواضع الأخرى فى القرآن الكريم • ونستطيع مستأنسين بسورة طه أن نقول : ان أصل الكلام على نحو قريب من الآتى : واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى • ونستطيع أن نكمل ما بقى من حذف مستأنسين بسورة ص مثلا ، قال تعالى[1] : ﴿ قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين • قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك لعنتى الى يوم الدين • قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون • قال فانك من المنظرين • الى يوم الوقت المعلوم ﴾ •

واذا كنا تبينا فيما سبق من آيات أن فيها أكثر من إشارة إلى المفاضلة والاتجاه الى أعلى • بالحق حينا ، كما هو الحال فى تفضيل الله تعالى بعض النبيين على بعض وتفضيل هذه الأمة المحمدية على غيرها من الأمم ، وبالباطل حينا آخر ، كما هو الحال فى إحساس مشركى مكة بأنهم أفضل من المؤمنين الفقراء الضعفاء ، وإحساس بنى إسرائيل بأنهم أفضل خلق الله تعالى ، فانا نتبين فى هذه الآية الكريمة أحساسا من النوع الثانى يتمثل فى اعتقاد ابليس اللعين بأنه أفضل من الملائكة ومن آدم عليه السلام •

وحينما يرفض إبليس اللعين أمر الله تعالى بالسجود لآدم عليه السلام ، فهو إنما ينساق مع نفسه الأمارة بالسوء التى دفعته إلى حسد آدم عليه السلام على هذه المنزلة العالية الرفيعة التى حباه بها أحكم الحاكمين • وقد أعماه داء الحسد عن أن ينظر الى آدم عليه السلام نظرة منصفة ، فاكتفى بالمقارنة بين المادتين الأوليتين اللتين صيغا منهما ، فانتهى الى تفضيل النار على الطين ناسيًا أو متناسيًا أنه عز وجل قد نفخ فى ذلك الطين من روحه • قال تعالى فى سورة الحجر[2] : ﴿ واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون • فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ •

ومن يدرى ؟ ربما كان من أسباب حسد الشيطان الرجيم لآدم عليه السلام أن لديه إحساسا عميقا بحق الأقدمية على غرار إحساس

(١) آيات ، ٧٥ — ٨١ .
(٢) آية ، ٢٨ ، ٢٩ .

المفضولين الذين يقدّم عليهم المتأخّرون زمناً دون محاولة لفهم السبب المنطقى فى ذلك • والى حقيقة الأقدمية أشار قوله تعالى فى سورة الحجر[1] أيضا : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ ومعلوم أن ابليس عليه لعنة الله واحد من الجن ، والى ذلك أشار قوله تعالى فى سورة الكهف[2] : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا • ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ، وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ •

وهذه هى الآية التالية على لسان اللعين : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا ﴾ •

ونودّ أن نشير بهذه المناسبة الى أنّ الإسلام الحنيف لم يلو وقتا من الأوقات للغة العربية عنقا ولم يرغمها لحظة من اللحظات على أن تسير فى غير الطريق الذى كانت تسير فيه قبل الاسلام ووقت نزول القرآن الكريم فى أسمى طرق الوحى على المصطفى صلى الله عليه وسلم • وفى ضوء هذه الحقيقة سننظر الى القسم الأول من الآية الكريمة • قال تعالى : ﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾ فما معنى « أرأيتك » فى لسان العرب الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ؟ معناه أخبرنى • فقد ذهب الحوفى والزمخشرى وسيبويه والزّجاج إلى أن جملة أرى لا يلحق بها كاف الخطاب الا اذا كانت بمعنى أخبرنى[3] والمستقر فى أرأيت بمعنى أخبرنى أن تدخل على جملة ابتدائية يكون الخبر استفهاما فان صرح به فذلك واضح والا قدر[4] فأين فى هذا القسم من الآية المبتدأ والخبر الذى يشترط فيه أن يكون استفهاما ؟

لقد ذهب العلماء الى أن فى هذا القسم من الآية الكريمة كلاما محذوفا تقديره : أخبرنى عن هذا الذى كرّمته علىّ لِمَ كرمته علىّ وقد خلقتنى من نار وخلقته من طين • وحذف هذا لما فى الكلام من الدليل عليه[5]

---

(١) آية ٢٦ ، ٢٧ •
(٢) آية ٥٠ ، ٥١ •
(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٥٧ •
(٤) البحر المحيط ٥٧/٦ •
(٥) البحر المحيط ٥٧/٦ •

وهذا يعنى أننا بصدد استفهام مقدر وهو لم كرمته على ، فقد انعقد من قوله : هذا الذى كرمته علىّ لِمَ كرّمته علىّ جملة من مبتدأ وخبر ؛

ونستطيع أن نوجز الإعراب فيما يلى : رأى : فعل ماض • والتاء فاعل والكاف مفعول به منصوب • ومعنى أرأيتك : أخبرنى • واسم الإشارة « هذا » مبتدأ • أما خبره فالجملة الاستفهامية المقدرة لم كرّمته على ؟

وهذا هو القسم الثانى من الآية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا ﴾ • واللام من لئن ، للقسم • فهذا ابليس اللعين يقسم بعزته عز وجل ، أو به عز وجل ، لئن نسأ له فى الأجل وأخره الى يوم القيامة ، فانه سيستأصل ذرية آدم عليه السلام باغوائهم عن آخرهم ولا يستثنى إلا القليل جدا والنزر اليسير من هذه الذرية • والملعون يستثنيهم كرهًا لا طوعا • ويقال : احتنك الجراد الزرع اذا أكل النبت. ويقال أيضا : حنك الدابة واحتنكها اذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به • فكأنّ ابليس اللعين مصمم على أن يضلل كل عباد الله تعالى ويوجههم بكل وسائله الشيطانية الابليسية الوجهة السيئة التى يريد • وكأنه يريد لهم أن يكونوا بمنزلة الدواب التى تسير وفق رغبة مالكها ومسيّرها وليس وفق رغبتها هى •

وحينما نتأمل هذه الطريقة العجيبة فى الحديث ، فانا ننتهى الى أنها تدل على أقصى ما يمكن أن يتصور من حسد لآدم عليه السلام وذريته ، وحقد لم يستطع عليه لعنة الله تعالى أن يجعله دفينا أو أن يسدل عليه ستار الكتمان • انه لم يستطع أن يفعل شيئا من ذلك ، بل انه لم يخطر بباله شىء من ذلك لأن الحسد والحقد فى نفسه أكبر من أىّ إخفاء أو اصطناع أو تزويق •

وفى سبيل تمثل أبعاد الحقد العاصف من الشيطان الرجيم لآدم عليه السلام وكل من اتصل به ، علينا أن نقف عند لفظة ذرية التى جاءت على لسان الرجيم • فلو كان للرجيم حق عند آدم عليه السلام وكان عنده شىء من العدل والإنصاف ، ولم يكن حاسدا لآدم عليه السلام حاقدا عليه وعلى كل من اتصل به بسبب من الأسباب لاقتصر على أخذ حقه من آدم عليه السلام فقط ، هذا إن صحّ أنّ له حقا • ولكن الرجيم وقد هيأ نفسه للانتقام من الشخص الحى أمامه ، يتخطاه — وقد أضمر فى نفسه من الشر ما أضمر — الى الذرية ، طالبا الاذن منه عز وجل

أن يخلى بينـــه وبين الذرية حتى يـــوم القيامة كى يغويهم أجمعين إلا عباد الله المخلصين .

وفى سبيل تقريب حسد اللعين وحقده ، فى امكاننا أن نتحول الى واقعنا وأن نتخيل شخصا وقع بينه وبين آخر شىء من سوء التفاهم . فاذا أعطى أحدهما نفسه هواها ولم ينقد لتعاليم الدين الحنيف ، فمن الجائز أن يتربص بخصمه الدوائر . ولا نكاد نتوقع من ذلك الشخص أن تمتد دائرة حقده كى تشمل الذين يرتبطون بخصمه فى صورة من الصور . ولو فرض ان ذلك الأسود القلب قد امتد بدائرة حقـــده كى تشمل الذين يرتبطون بخصمه فى كل صورة ، فلا نكاد نتوقع لدائر الحقد أن تتسع للدرجة التى تشمل ذرية خصمه ، تلك الذرية التى لما تولد بعد . واذا كنا لا نكاد نصدق وجود شخص كهذا مع أن له حقا من نوع ما عند خصمه ، فما قولك فى ذلك المخلوق الذى يضمر غاية الحسد والحقد لكل ذرارى إنسان مظلوم ليس له من ذنب سوى أن خالقه كرمه وأحسن صورته . أما هذا الانسان المظلوم فهو آدم عليه السلام الذى أضمر له ابليس اللعين ، بل الذى أظهر له ولذريته كل حسد وحقد الى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها !

أو ليس الأولى بهذا اللعين — وبذريته — أن يعصى ؟ بلى . وقد قال عز من قائل فى سورة الكهف[1] : ﴿ واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ، بئس للظالمين بدلا ، ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا ﴾ .

وعلى الرغم من أن أبليس عليه لعنة الله تعالى حريص كل الحرص على أن يضل كل ذرية آدم عليه السلام ، فقد كان على علم تام بأن ذرية أبى البشر ، المخلوق الذى كرمه الله تعالى عليه ونفخ فيه من روحه ، ينبغى أن يكون لدى بعضها من نقاء المعدن وصحة الطبع وسلامة القلب ما يوافق ذلك التكريم والتفضيل الذى جعله الله تعالى من نصيب آدم عليه السلام ، ومن نصيب ذريته الذين كرمهم الله تعالى بأن خلقهم كما خلق أباهم فى أحسن تقويم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا . فى ضوء هذه الحقائق التى لم تكن لتغيب عن الملعون إبليس ، استثنى مرغما طائفة من الذرية

---

(1) ٥٠ ، ٥١ .

لن يستطيع إغواءها • وتمشيا مع نفسه الشريرة وما تتربص من دوائر للبشر ، هو يجعل تلك الطائفة فى أصغر دائرة ممكنة • إنها حسب هواه وتمنيه طائفة قليل عدد أفرادها • قال تعالى على لسانه : ﴿ لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا ﴾ •

وبما أنه عز وجل قد ميز الانسان بالعقل وبالإرادة ، فهو قادر على أن يختار طريق الخير أو طريق الشر بعد أن اتضح له كل من الطريقين ، وبما أن ثواب المتقين فى الآخرة كبير وعقاب المذنبين أيضا كبير ، فقد شاءت إرادة الله تعالى أن يوضع هذا الانسان ، صاحب القدرة على التمييز والاختيار موضع المسئولية والاختيار ، ليعلم أيسير فى الطريق الذى يرضى الله عز وجل أم يتبع خطوات الشيطان الرجيم ، ومن ثم فقد أذن لإبليس اللعين بأن يقوم بما شاء من تضليل وإغواء ، وأن يؤخر إلى يوم الوقت المعلوم قال تعالى : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ • وما معنى القول : « اذهب » فى قوله تعالى : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ﴾ ؟ يقول أبو حيان[1] : « والأمر بالذهاب ليس على حقيقته من نقيض المجىء ولكن المعنى : اذهب لشأنك الذى اخترته » •

واذا كان اللعين قد فهم من جملة « اذهب » أن ما طلبه من رب العزة بالسماح له فى القيام بمحاولاته لإغواء عباده عز وجل قد تحقق فالحقيقة أنها أكثر دلالة على غضب الله تعالى وسخطه على اللعين وطرده له من رحمته • وما مثل اللعين فى هذا الموقف إلا كمثل شخص انقاد لتوجيهات نفسه الأمارة بالسوء واستعصى على الناصح الأمين حتى تمكن اليأس منه ، فما كان الا أن عبر عن يأسه بالقول : اذهب لشأنك الذى اخترت ورضيت • فمثل هذا الكلام دليل على سخط الناصح الأمين وعدم رضاه • وليس على السماح لصاحب النفس الأمارة بالسوء بأن يستمر فى خطئه • ولكن صاحب النفس الأمارة بالسوء يفهم ذلك الطرد والإبعاد إذنا وسماحا ، ولا يهمه فى قليل أو كثير ما هو جوهر ذلك الكلام ولبه ، بدليل أنه يفرح بذلك القول ، ويعتبره حظا للإصر

---

(١) البحر المحيط ، ٦ / ٥٨

من على ظهره وفكا للأغلال من يديه وعنقه • فهو الآن حر طليق يعمل ما يشاء ويحلو له •

وبتأملنا للكلام الذى جرى على لسان رب العزة لا نكاد نجد فيه ، ما يمكن أن يفهم اللعين منه ما فهمه من جملة اذهب التى وافقت ما فى نفسه الأمارة بالسوء • إذ الكلام منصب مباشرة وفى عنف وتوكيد على الذين يتبعون اللعين فإن مصيرهم هم وابليس قائدهم إلى الجحيم • كما أن الكلام بعـــده تحذير للبشر من اللعين بأكثر من كونه إذنا له وسماحا •

وان ثمة مسألة على قدر كبير من الأهمية نود توضيحها قبل الخوض فى تفاصيل الوسائل التى يتذرع بها ابليس اللعين • وهى مسألة ذات علاقة بالآية الكريمة فى هذه السورة المباركة • وقد انتهينا بشأنها الى أنها تدل فيما تدل على علم الله تعالى الذى ليس الزمن جزءا منه والذى يتساوى فيه المستقبل بكل من المـــاضى والحاضر • وهذه هى الآية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ لقد عبر بالأمر فى الآية الكريمة عن علم الله تعالى المطلق وإلا فإن الله تعالى لا يأمر إلا بفعل الخير كل الخير •

فى ضوء هذه الحقيقة من كونه عز وجل قد أحاط بكل شىء علما وأنه لا يأمر الا بالخير ، سننظر الى الآية الكريمة التالية التى تشير الى الوسائل التى سيلجأ اليها اللعين لاغواء ذرية آدم عليه الســـلام • قال تعالى : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشـــيطان الا غرورا ﴾ •

لنتأمل هذا التصوير القرآنى لوسائل اللعين • إننا بصدد صورة لذلك الجيش الجبار الذى تستخدم فيه كل أنواع الأسلحة التى يحملها الفرسان والمشـــاة بالإضافة الى الأصوات بأنواعها المختلفة • جاء فى ظلال القرآن[1] : ﴿ وهو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول • فهى المعركة الصاخبة ، تستخدم فيهـــا الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم

(١) ١٥ / ٥١

للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة • فاذا استدرجوا الى العراء ، أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال ! » •

ويلاحظ أن الآية الكريمة فى عرضها للوسائل ، تراعى أقربها استعمالا وأكثرها أهمية • أما الأقرب استعمالا فانها الأصوات • ويقصد بها كل أنواع الأصوات التى يمكن أن يستثار بها الناس للشرور والآثام • ولكن هذه الوسيلة السهلة الاستعمال السريعة المفعول ، عاجزة هى — وغيرها من وسائل — عن استفزاز عباد الرحمن ، لأنهم بحمد الله تعالى من الذين ينطبق عليهم قوله تعالى[1] : ﴿ فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ فلن تستطيع كل أصوات اللعين أن تجد منفذا لها خلال آذان عباد الله تعالى ومنها الى قلوبهم ، لأن هذه الأسماع مشغولة أساسا بسماع أحسن القول ، ومن أحسن من الله قيلا • وقد استثنى عباد الرحمن هذا القول فى الآية الكريمة : ﴿ من استطعت منهم ﴾ وهو قول مهيىء لذكر وسيلة أخرى أو وسائل يجربها اللعين الواحدة تلو الأخرى وتفشل الواحدة تلو الأخرى بشأن عباد الرحمن الذين يستعيذون بالله تعالى حينما ينزغنهم من الشيطان نزغ ويتوكلون عليه ويعتصمون به لأنه هو مولاهم فنعم المولى ونعم النصير •

وإنما كانت الأصوات أولى وسائل اللعين للغواية ، لأنها تستطيع أن تنفذ خلال الآذان ، أراد أصحابها أم لم يريدوا ، ويتفاوت موقفهم منها بعد ذلك ، القلة القليلة هى التى تجد عندها القدرة لأن تقاوم وتصارع وتنتصر • ومعروف أن احدى آيات الحكمة وجهت الإنسان بشأن أذنه وبصره وفؤاده الوجهة الصحيحة ، قال تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ •

وبديهى أن الاستفزاز لا يقتصر على الغناء ، كما قد يتبادر الى الذهن ، انما يشمل كل ما يتخلل الأسماع مما هو قادر على تهييج الناس على الشرور والآثام سواء أكان ذلك فى هيئة أصوات ناقلة للمعانى بصورة مباشرة أم بصورة إيحائية وغير مباشرة •

وحينما لا تنجح وسيلة ابليس القريبة لاستفزاز عباد الله تعالى القريبين منه جل وعلا ، فهل معنى هذا أن اللعين سييأس ، لا بطبيعة الحال ، انه فى هذه الحال ينوع من وسائله ويشدد من هجومه • وهذا ما أشار

---

(١) الزمر ، ١٧ ، ١٨ •

اليه قوله تعالى : ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ فاللعين يعتبر نفسه مع ذرية آدم عليه السلام فى معركة حامية الوطيس ، وهو حريص دائما وأبدا على أن يكون الظفر له • وفى سبيل تصوير ذلك الحرص من الشيطان الرجيم على أن يكون المنتصر دائما فى كل معركة يخوضها ، نجد القرآن الكريم يستعير هنا الفرسان والرجالة المسلحين ، رمزين كبيرين على ما وراءهما من وسائل وأسلحة وعتاد يستعين بها اللعين • وقد تقدمت الإشارة للفرسان لأنهم عليهم الاعتماد الأكبر فى المعارك وهم يستغنون بحال عن الرجالة •

واذا كانت الآية الكريمة قد اتخذت من الفرسان والمشاة رمزين كبيرين على الجيش من الوسائل التى يسخرها اللعين لاغواء عباد الله تعالى ، فانها اختارت ، مراعاة لوحدة النظام داخليا رمزين كبيرين ، وميدانين جليلين ، دليلا على الميادين التى لا أول لها ولا آخر ، والتى يسعى اللعين جاهدا لاغواء عباد الله تعالى بشأنها • أما هذان الرمزان أو الميدانان ، فانهما أحب الميادين الدنيوية الى العباد قاطبة ، وهما ميدانا الأموال والأولاد • وحينما يكون الشيطان الرجيم قادرا على الافساد بشأن هذين المجالين الحبيبين ، فمن باب أولى أن يكون حريصاً ، وربما قادرا على الافساد فيما عداهما • قال عز من قائل خطابا للعين : ﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان الا غرورا ﴾ •

ونريد أن نقف على معنى مشاركة الشيطان الرجيم لذرية آدم عليه السلام فى أموالهم وأولادهم • ويلاحظ أن الآية الكريمة ذكرت الأموال أولا لسهولة الافساد فى هذا الميدان بالقياس الى الأولاد ، فما معنى القول : ﴿ وشاركهم فى الأموال ﴾ ؟ فى إمكاننا أن نفهم المشاركة فى الأموال بأنها قدرة اللعين على جعل البعض من ذرية آدم عليه السلام يحصلون على المال من طريق الحرام وينفقونه فى طريق الحرام أيضا • وما أكثر صور ذلك • ومما يتبادر الى الذهن من صور الحصول على المال بطريق الحرام • أكل أموال اليتامى ظلما والتطفيف فى الكيل والوزن ، وقد نهت آيات الحكمة فى هذه السورة عن كل ذلك.ومما يتبادر الى الذهن من صور انفاق الأموال بطريق الحرام ، تبذير الأموال تبذيرا ، وقد فهمنا التبذير بأنه انفاق أيّ مبلغ من المال مهما كان زهيدا فى غير مرضاة الله تعالى • وقد نهت آيات الحكمة أيضا عن التبذير •

فاذا تحولنا الى المشاركة فى الأولاد التى أشار اليها قوله تعالى : ﴿ وشاركهم فى الأموال والأولاد ﴾ استطعنا أن نفهم تلك المشاركة بأنها تلك الذرية التى يحرص اللعين على أن يكون الحصول عليها بطرق غير مشروعة • أعنى عن طريق جريمة الزنا • وقد نهت آيات الحكمة فى هذه السورة عن الاقتراب من الزنا ضمن ما نهت عنه من شرور وآثام • إن الشيطان الرجيم حريص على فساد الأفراد فالمجتمع فالأمة ، ومن أهم وسائله الى ذلك أن تشيع الفاحشة بين ذرية آدم عليه السلام ، إذ ما معنى شيوع الفاحشة فى المجتمع ؟ معناه اكتفاء الناس بالحرام واستغناؤهم عن الحلال ، فاتساع دائرة الحرام فوجود الأولاد غير الشرعيين فثورة هؤلاء على مجتمعهم وانتقامهم منه بمزاولة الفاحشة والحرص على نشرها ويؤدى ذلك كله الى اختلاط الأنساب بل الى الفوضى فيها • يحدث كل ذلك على حساب تعاليم السماء التى لن تجد لها مكانا فى تلك المجتمعات التى افتتنت بالحياة الدنيا فأكلت ولهت وتمتعت كما تتمتع الأنعام •

وحيث أن هذه الأعمال إنما تتم بتوجيه من الشيطان الرجيم وإغراء ، فكأنه شريك للناس فى تلك الذرية من الحرام • ومعروف أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس فى حجة الوداع قائلا[1] « فإن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا » •

ويدخل فى هذه المشاركة الشيطانية ، تلك الأنواع من الذرية التى يجعلها الجاهلون الواهمون نذورا للآلهة أو عبيدا لها ، فهى للشيطان كعبد العزى وعبد اللات وعبد الشمس وعبد الحارث وهكذا •

وبما أنه من الطبيعى أن تظل بعد كل هذه المحاولات الشيطانية مجموعات بشرية مستعصية على اللعين مستمسكة بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، فان اللعين آنذاك يلجأ الى آخر وسيلة شيطانية له ، من نجا منها فانه بعون الله تعالى وتوفيقه يصح أن يكون من عباد الرحمن الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون • أما هذه الوسيلة الأخيرة فانها التى عبرت عنها الآية الكريمة بجملة واحدة من قوله تعالى خطابا للعين : « وعدهم » إن اللعين وقد فشلت مع هذه البقية

(١) صحيح البخارى ، ٨ / ١٨

الباقية كل وسائله الشيطانية المخففة والمركزة وفى كل الميادين ، بما فى ذلك ميدانا المـــال والذرية ، فانه يلجأ الى ورقته الأخيرة مع النفوس المتحرجة المتأثمة فيغريها بارتكاب اللمم من الذنوب ويقنعها بالاكتفاء به أول الأمر ، ويلوّح لها بباب التوبة المفتوح على مصراعيه دائما • مع أن اللعين على علم تام بأنه مضلل وأن للتوبة شروطها التى ليس منها أن يرتكب الإنسان المعصـــية على أمل أن يتوب بعد ارتكابها • قال تعـــالى[1] : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما ﴾ •

وحينما ينزلق الانسان الى لمم الذنوب ولم يقدر له أن يتوب التوبة النصوح ، فانه من الجائز أن ينزلق الى ما وراء ذلك وهذا هو الهدف الأبعد للشيطان عليه لعنة الله • وكيف لا يكون المتورّط فى اللمم من الذنوب عرضة لأن يتورط فى جليلها وهو بمثابة الذى يرعى حول الحمى • فبما أن الراعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه كما جاء عن المصطفى صلى الله عليه وسلم فان المتورط فى اللمم من الذنوب وهو البسيط منها عرضة لأن يتورط فى جليلها وخطيرها •

وليس الوعد بالتوبة هو الصورة الوحيدة للمنافذ التى يتسلّل منها الشـــيطان اللعين بوعوده ، فان هناك الكثير والكثير من المنافذ التى يحاول التسلّل منها ، حتى اذا غرر بالانسان وأغواه ألقى اللوم عليه بحجة أنه لم يكن له من دور سوى أن دعا الإنسان الى الشرور والآثام فلبى طلبه • فاللوم على الانسان الذى لبى طلبه ولم ينتفع بنعمة العقل الذى ميزه الله تعالى به وليس على الشيطان • هذا هو منطق اللعين الذى صورته أروع تصوير الآية الثانية والعشرون من سورة ابراهيم عليه السلام والتى اعترف فيها اللعين بأنه قدّم للناس الوعود الباطلة فاتّبعوه وأغفلوا وعد الحق جل وعلا • ونستطيع أن ندخل فى وعود اللعين كل ما يزين به للانسان كى يرتكب قبيحا أو أثما ، فهو مثلا يمنى السارق بالافلات من قطع اليد ، والزانى من الرجم أو الجلد ، والقاتل من القتل ، والمرتشى من عقوبة الرشوة الى آخر الوعود المعسولة الشيطانية التى لا أول لهـــا ولا آخر والتى ينال بسببها الإنسان سيىء الجزاء فى الدنيا والآخرة •

وما هى الفئة الوحيدة الناجية من كل وسائل أبليس اللعين ودعواه ؟

---

(١) النساء ، ١٧ .

إنها فئة عباد الرحمن الذين نص عليهم قوله تعالى : ﴿ ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيلا ﴾ . وواضح أن الآية الكريمة تبشر عباد الرحمن المقبلين عليه عز وجل المستعينين به بكل رعاية وحماية. ما أضعف اللعين حينما يستعيذ الإنسان بالله السميع العليم . وقد نصت على هذه الحقيقة آيات الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة .

ونود أن نتبع تأملاتنا باستنتاجين :

الأول : نتبين مما دار من حوار بين المنتقم الجبار وبين ابليس اللعين ، رحمة الله تعالى التى تسبق عذابه وحلمه الذى يسبق غضبه . فقد شاءت إرادة الله تعالى الغفور الرحيم ، المنتقم الجبار ، أن تسمح لابليس اللعين أن يقول ما شاء وأن ينفث من صدره ما استطاع من حسد وبغض وكبر وعصيان . ومن الذى يأذن بذلك ؟ انه ﴿ الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ . ومن الذى يجرؤ على أن يقول ما قال ؟ انه ابليس اللعين الحقير الطريد من رحمة الله تعالى .

الثانى : ما دار من حوار بين المنتقم الجبار وبين ابليس اللعين ، من أجل المظاهر للعدالة السماوية الكاملة ، والتى نتبينها فى قوله تعالى من سورة ق[1] : ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ . ونستطيع أن نقول عن هذه العدالة السماوية إنها تتجلى هنا فى موضعين . الموضع الأول حينما يعصى ابليس اللعين أمر ربه بالسجود لآدم عليه السلام سجود تحية وقد خلقه الله تعالى ونفخ فيه من روحه . وهنا تشاء ارادة الله تعالى المنتقم الجبار أن تظهر ما فى نفس اللعين على لسانه . وقد تجلى ذلك فى جوابه على سؤال رب العزة ، ذلك الجواب الذى يفيض حمقا وكبرا وغرورا ، والذى ينص فيه اللعين على أنه خير من آدم عليه السلام . وهو فى هذا التعبير مخالف لما فهمه هو نفسه من رب العزة بأن آدم عليه السلام أكرم منه ، بدليل أنه جاء على لسان اللعين قوله تعالى : ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾ وبدليل أن رب العزة قد أمر الملائكة وفيهم إبليس بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم . وكانت القاعدة التى اعتمد عليها اللعين فى المقارنة هى أنه مخلوق من نار بينما آدم مخلوق من طين وفى اعتقاده أن الطين لا يسمو سمو النار . وغفل اللعين عن أن الله تعالى قد نفخ فى آدم عليه السلام من روحه .

---

(١) آية ، ٢٩ .

وحيث ان جواب اللعين الذى كله حمق وكبر وغرور ، معمق لمعنى العصيان الذى سبق وأن زاوله اللعين عمليا ، فقد استوجب الجزاء العادل المساوى للعصيان • فلننتقل الى سورة الحجر[1] مثلا كى نتبين هذا الجزاء وحدوده النهائية ، قال تعالى : ﴿ واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون • فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين • فسجد الملائكة كلهم أجمعون الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين • قال يا ابليس ما لك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون • قال فاخرج منها فانك رجيم • وان عليك اللعنة الى يوم الدين ﴾ •

ان جزاء اللعين أن يخرج منها ، أى يخرج من الجنة أو السماء أو جملة الملائكة[2] وأن تستمر عليه اللعنة الى يوم القيامة حيث يحل العذاب محل اللعن • وكما هو واضح فان عذر اللعين لا يقل قبحا عن فعله • وماذا كان موقف اللعين من هذا الإبعاد من رحمة الله تعالى ؟ كان منه التمادى فى الغى والضلال اذ تعهد باغواء الناس أجمعين الا عباد الله المخلصين • وما موقف العدالة السماوية من هذا التعهد الشيطانى أو التهديد الإبليسى ؟ الحقيقة أن هذا هو الموضع الثانى الذى تتجلى فيه العدالة السماوية • فعلى الرغم من أنه سبق فى علمه عز وجل أن اللعين ماض فى تنفيذ تهديده ، فقد اكتفت العدالة السماوية هنا بمقابلة التهديد بالتهديد ، ان جهنم مصير ابليس اللعين اذا نفذ ما تعهد به من تضليل واغواء ، قال تعالى[3] : ﴿ قال رب فأنظرنى الى يوم يبعثون • قال فانك من المنظرين • الى يوم الوقت المعلوم • قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين • الا عبادك منهم المخلصين • قال هذا صراط على مستقيم • ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وان جهنم لموعدهم أجمعين • لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ •

---

(١) آيات ، ٢٨ — ٣٥
(٢) أنظر الكشاف ، ٢/١٩٠
(٣) الحجر ، ٣٦ — ٤٤

(١٣)

ليس كلُّ بـــنى آدم امتثلوا لتعاليم السماء

أما وقد بيّن القرآن الكريم حقيقة موقف الشيطان الرجيم من ذرية آدم عليه السلام ، فما هو الموقف الذى كان ينبغى لهذه الذرية أن تقف من تعاليم السماء التى حذرت من اتباع خطوات الشيطان الرجيم ؟ أن تطبق تلك التعاليم بحذافيرها ففى ذلك إخزاء للشيطان الرجيم . وهل فعلت الذرية ذلك ؟ البعض هو الذى امتثل لتلك التعاليم . وما العاقبة ؟ عباد الرحمن يؤتون كتب أعمالهم بأيمانهم . أما الذين كانوا فى الدنيا عميا ، فهم عمى فى الآخرة وأضل سبيلا . قال تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما ، واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا . ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا . ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ .

ان الآية الكريمة الأولى ، تشير الى مظهر واحد من مظاهر نعم الله تعالى على الناس ، ألا وهو حملهم فى الفلك كى يبتغوا من فضله تبارك وتعالى . وكان المنتظر فى المقابل أن يفردوه عز وجل الذى له الخلق والأمر بالعبادة . والذى حصل عكس المتوقع تماما مع علم المشركين التام بأنه عز وجل هو الخـــالق والرازق الى آخر ما يقرّون بتفرده عز وجل . وفى الوقت الذى تقرر الآية الثانية كفران الناس للإحسان ، هى تقرر العجز التام للالهة التى يعبد هؤلاء ، فهى لا تستطيع أن تقدم نفعا أو تدفع ضرا ، سواء كان من جهة البحر أو من أية جهة أخرى .

قال تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله انه كان بكم رحيما ، واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾ • فهؤلاء المشركون ينسون تماما وقت الشدة فى البحر الآلهة التى كانوا يعبدون ولا يتبينون لهم ملجأ الا عنده عز وجل وحده لا شريك له ! والعجيب فى أمر هؤلاء أنهم بعد أن ينقذهم عز وجل من الكرب الذى هم فيه ويصلوا الى بر السلامة آمنين ، يعودون الى الشرك الذى سبق أن كانوا فيه •

واذا كان هذا القول فى الآية الكريمة : « ربكم الذى » يوحى بتفرده عز وجل باسداء النعم الى عباده ، فان القول : « لكم » معمق لقيمة هذه النعمة ومنبه الى وجوب شكر الله تعالى المتفضل بها • فالله عز وجل انما أوجد البحر أساسا — اضافة الى المنافع الجمة — كى يكون صالحا لأن يركبه الإنسان ويتخذه وسيلة من وسائل الحصول على رزقه • وهذا الهدف مظهر من مظاهر تكريم الله تعالى للإنسان الذى خلقه عز وجل فى أحسن تقويم •

وان نعمة حمل الله تعالى للناس فوق الماء ، بحاجة الى أن نقف عندها مليا • فقد شاءت إرادة الله تعالى أن تكون مياه البحار والأنهار صالحة لأن يدنو الانسان منها ، بل أن يتخذها مصدرا من مصادر رزقه عن طريق استخراج ما ينتفع به منها ، أو عن طريق اتخاذ البحر ركوبا يحمله حيث شاء • وهنا نجد أنفسنا واقفين بإجلال وخشوع أمام تسخير الله تعالى للرياح التى تجرى بالسفن بما ينفع الناس ، مرتلين بخشوع قوله تعالى فى سورة الشورى[1] : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ﴾ فلو أن ارادة الله تعالى لم تشأ ايجاد الريح لما استطاعت قوة أن تحرك السفن على ظهر البحر • ولو أن إرادة الله تعالى شاءت اغراق السفن فى البحر فليس هناك من قوة تستطيع أن تحول دون الإغراق أن يتم •

وقد يقول قائل : ولكن السفن فى عصرنا تسير بالطاقة وليس بالريح ، أليس كذلك ؟ بلى • ولكن حاجة الآلات للهواء أكبر من ماسة •

---

(1) آيات ، ٣٢ — ٣٤

ولا يقف ردنا عند هذا الحد انما يتجاوزه الى تقرير حقيقتين بديهيتين : الأولى هى أن الإنسان انما توصل الى اكتشاف هذه الطاقة الحرارية عن طريق العقل الذى ميزه به رب العزة ، خالق الإنسان فى أحسن تقويم • والثانية هى أن دور العقل الإنسانى تجاه الطاقة يقتصر على اكتشاف الشىء أو الأشياء الموجودة أصلا ، ومن ثم تظل نعمة حمل الله تعالى للناس فوق الماء هى تلك النعمة التى تطوق دائما وأبدا أعناق البشر الذين عليهم أن يقوموا بحق هذه النعمة ، وذلك بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له • فليت الإنسان الذى توصل عن طريق عقله الى تلك الاكتشافات ، أحسن الانتفاع بهذا العقل فانتهى الى إفراد الله تعالى بالعبادة • والمأساة أن يحسن الانسان الانتفاع من عقله فى مجال المادة ولا يحسن الانتفاع منه فى مجال الروح والإيمان •

ومن مظاهر رحمته عز وجل بعباده أنه لم يجعل البحر خاصا بالبررة والمؤمنين ، وذلك بقصد أن يصحح المخطئون أخطاءهم ولأن هذه الدنيا بما فيها من بحار وأنهار لا تساوى عند الله تعالى جناح بعوضة والا لما سقى الكافر فيها شربة ماء •

واذا كانت الريح تشترك مع غيرها من قوى سخرها الله تعالى لتسيير السفن ، فان الريح تنفرد بالعمل بشأن هذه الآية الكريمة الثانية ، قال عز من قائل : ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾ إننا الآن أمام الريح التى تحولت فجأة بارادته تعالى عاصفة ، وأمام الأمواج التى هى كالجبال ، وأمام أضخم السفن وقد غدت مثل الريشة فى مهب الريح لا تملك الا أن تطاوع فتتجه حيث اتجهت الريح • فما كان قبيل لحظات نعمة ، تحول هو ذاته بارادته عز وجل مظهرا من مظاهر غضبه تعالى على الكافرين الجاحدين لنعمه • وقد تشاء ارادته عز وجل أن تقبل فى تلك اللحظة العصيبة توبة المذنبين وإيمان الكافرين ، فيعود كل شىء فى لمح البصر الى سابق حاله • تهدأ الريح ويسكن الموج وتعتدل السفينة وتسير حيث وجهتها المقصودة حتى تصل بسلامة الله تعالى الى بر النجاة •

ولعلنا تبينا أن هناك ثلاثة أحوال مرت بها السفينة • الأولى والثالثة

متماثلتان • والثانية الممثلة للابتلاء منفردة • وأن هذه الأحوال الثلاث مرت تباعا فى سرعة • وكأن الحالة الثانية ما كانت •

وحينما نقول أن الأمور تعود فى المرحلة الثالثة كما كانت فى المرحلة الأولى تماما وكأن شيئا لم يكن بينهما فانا نعنى ذلك حقا • فالذين يتعاملون مع العاصف أو الحاصب من الرياح يلاحظون ثلاث مراحل تمر بها الريح ، تعتبر الأولى والثالثة متماثلتين ، وهما مرحلة الهدوء الذى يسبق العاصفة والذى يليها مباشرة أيضا • وليس بعيدا عن أذهاننا المثل المشهور عن الهدوء الذى يسبق العاصفة وينبغى أن نضيف الى المثل ملحقا أو شقا آخر عن الهدوء الذى يلى العاصفة ، فهذا هو الثابت عند علماء الطبيعة •

وحيث ان إرادة الله تعالى ، كما يفهم من الآية الكريمة ، لم تشأ إغراق هؤلاء المشركين ، فإنا نستطيع أن نفهم ضمنا أن فترة الامتحان بالريح العاصف كانت أقرب الى القصر غالبا •

ونود فى حقيقة الأمر أن نتساءل : لماذا اختارت الآية الكريمة نعمة حمل الله تعالى للناس فوق المـاء دون سواها من نعم ؟ وقبل أن نحاول الاجابة نود أن ننص على الحقيقة المعروفة للجميع وهى أنه ليس هناك من نعمة الا وفى مقدور العناية الالهية أن تجعل منها ، لفترة تطول أو تقصر ، وسيلة انتقام ، فكل شىء داخل تحت قدرة الفعال لما يريد والذى اذا أراد شيئا فانما يقول له كن فيكون • أما الاجابة على السؤال فانها ذات شقين :

الشق الأول هو أن نعمة حمل الله تعالى للناس فوق المـاء تتقدم سواها فى طواعيتها لكونها نعمة فنقمة فنعمة ، لأنها هى ذاتها قابلة لأن تتشكل وتتلون وتتقلب وتلبس لكل حالة لبوسها دون كبير حاجة لتدخل خارجى • بدليل أن السفينة وقد عادت الى حالتها الأولى لا يكاد يتبين فيها أية آثار أو ندوب مطلقا وكأن السفينة بمن فيها لم تتحول لحظة من اللحظات عن حالتها الأولى التى كانت عليها • وبسبب طبيعة هذه النعمة القابلة للتقلب ، كانت قادرة على أن تقوم بجليل عملها فى الحول من الناس القلب الذين يتذبذبون بين التوحيد والشرك ، فلا هم الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، وإن كانوا والحق يقال أقرب الى الفئة الأخيرة •

وإن تذبذب هذه الفئة دليل على بساطة تفكيرها بدليل أنها كانت تسرح وتمرح فى مراعى الشرك دون أن تعتبر بكل آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته • حتى إذا اصطدمت هذه الفئة بآية بسيطة بالقياس الى غيرها لبساطة تقلبها ، اذا بهؤلاء البسطاء تقسرهم هذه الآية على أن يفردوه عز وجل بالعبادة • واذا كانت هذه الآية البسيطة بالقياس الى غيرها من آيات قادرة على قسر البسطاء على العودة الى جادة الطريق ، فانا نضيف مؤكدين بأن أرجح العباد عقلا وأكثرهم علما نافعا يفهمون من هذه الآية ما فهمه البسطاء • وينفرد العلماء الأتقياء بأنهم سباقون الى الفهم لأنهم انتفعوا من نعمة العقل ففهموا من هذه الآية ما فهموه من آيات الله تعالى الأخرى ، سواء كانت أقرب الى الظهور أو إلى الخفاء • وبالتالى لم يكونوا بنعمة من الله تعالى وفضل ، وقتا من الأوقات محل امتحان منه عز وجل بقصد أن يعودوا الى بارئهم وبذلك ينطبق عليهم قوله تعالى[1] : ﴿ ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وإنما يكون هؤلاء محل امتحان منه عز وجل بقصد أن يعلم المجاهدون منهم والصابرون وتبلى أخبارهم •

ومن الجائز أن يمتن الله تعالى بإعادة النعمة • ومن الجائز ألا تعاد • بل من الجائز أن يؤخذ الجاحدون أخذ عزيز مقتدر جزاء وفاقا • جاء فى سورة الرعد قوله تعالى[2] : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ •

والشق الثانى من الإجابة على السؤال على درجة كبيرة جدا من الأهمية • وكى نتوصل اليه نحن بحاجة الى أن نلقى نظرة مقارنة بين عجزى الآيتين الكريمتين وصدرهما • قال تعالى : ﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، انه كان بكم رحيما • واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾ • ونريد بالعجز ما يسمى تذييلا • وهو فى الآية الأولى ﴿ انه كان بكم رحيما ﴾ وفى الثانية ﴿ وكان الإنسان

---

(١) الرعد ، ١١
(٢) آية ، ١١

كفورا » • فمـا الذى يمكن أن يتبينه المتـأمل الى كل من التذييلين بالمقارنة الى ما يسبق كلا منهما ؟ انّه يتبين أن كلا من التذييلين يتكلم فى شىء ثابت ومقرّر • الأول يشير الى رحمـة البر الرحيم الأزلية والثانى يشير الى ما يعرف به جنس الإنسان عادة من كفران للنعم وجحود • جاء فى سورة سبأ قوله تعالى[1] : « وقليل من عبـادى الشـكور » •

فى ضوء هذين المعنيين الثابتين للتذييلين سننظر من زاوية مقارنة الى ما سـبقهما ، فما الذى يمكن أن يتبين ؟ يتبين أنّ رحمة الله تعالى دائمة وثابتة فلا تتجلى فقط فى نعمة حمل الله تعالى للناس فوق الماء ، وأنّ كفر جنس الانسان للنعم دائم وثابت فلا يتجلى فقط فى كفره لنعمة حمله فوق الماء • وكل ذلك يقودنا بشأن الشق الثانى من الجواب الى القول بأن اختيار نعمة حمل الله تعالى للناس فوق الماء فى الفلك دون سواها من نعم وآيات ، يعود لقدرة الفلك البارعة ، التى هى فى قبضة البر الرحيم ، والتى لا تكاد تهدأ ولا تستقر فى ذلك البحر الذى لا يثبت سطحه على حالة واحدة ــ على أن تقوم بما يراد لهـا من كونها رمزا مصـغرا لحياة الانسان نفسـها التى لا يختلف جوهرها بسلامته ومخاطره ، هدوئه واضطرابه ، رجائه وخوفه ، فى عين الحصيف الواعى ، عن حال السفينة التى تسيّرها القدرة الالهية • إنّ ثبات رحمة البر الرحيم ودوامها وثبات كفر جنس الإنسان ودوامه يظهران السفينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أحوج ما تكون لإحاطة العناية الالهية بها • وحيث انّ السفينة رمز مصغر لحياة الانسـان ذاتها ، فينبغى أن يكون شعور الانسان فى رحلة الحياة الطويلة تجاه كل نعمة من نعمه جل وعلا التى لا تحصى ، مماثلا لشـعوره بحاجة السفينة لأن تحوطها العناية الالهية ، وليثق الإنسان دائما أنه فى هذه الحياة التى ينعم فيها بنعم الله تعالى بمنزلة راكب السفينة • فكل نعمة ان لم يقم بواجب شكر الله تعالى عليها يجوز أن تسلب ، ومن الجائز أن يهلك الإنسان ، تماما كما جاز أن تغرق السفينة •

وأكبر دليل على أن يقظة الانسـان التامّة وعدم غفلته هو الهدف الذى ترمى اليه الآيتان الكريمتان ، هو أنّ السّياق القرآنى يطارد

---

(١) سبأ ، ١٣

ذلك الانسان الذى غفل عن ذلك الهدف اغترارا منه ببرّ الأمان الذى انتهى اليه • واذا به يؤخذ مما ظنه أمنـــا وطمأنينة فيفاجأ بأن البر الذى ظنه راسخا صلدا ليس سوى بحر مائج مضطرب ، ويزيد على بحر الماء بأنه بحر غدار • قال تعالى : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا • أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بمـــا كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ •

ولعلنا تبينا فى الآيتين الأخيرتين أن عقاب العودة الى الشرك يتمثل فى قطع دابر القوم المجرمين ، لأنهم هذه المرة أصرّوا على مقـــابلة الإحسان بالكفران ، بينما تمثل العقاب أول الأمر فى مجرد التخويف • وحيث إنّ الآيتين السابقتين تتحدثان عن البحر واغترار الذين أنقذهم الله تعالى من الغرق بإيصالهم الى البر سالمين ، فان الآيتين التاليتين تتحدثان عن قدرة الله تعالى إهلاك أولئك المخدوعين بذات الشىء الذى كان سبب انخداعهم وغفلتهم ، ألا وهو البرّ ، أو بذات الشىء الذى سبق أن نجّوا منه ألا وهو البحر • وبما أنه ليس ثمة من مكان يخرج عن البر أو البحر بفضائهما ، فكأن الحديث عن السيطرة على كل البحر وكل البر دليل على السبطرة على ما احتواه كل منهما وهو ما نعبر عنه بالقول : ان الحديث عن البر والبحر رمز لكل وسائل القدرة الالهية لإهلاك الإنسان • وانما كان الحديث عن البر والبحر فقـــط ، لأنهما امتداد لمـــا سبق من حديث عن نعمة لله تعالى على الناس تجلت فى كليهمـــا •

وكيف يكون الإغراق برا ؟ يقول علماء طبقات الأرض ان الذى نراه فوق ظهر الأرض من جبال وأودية وصحار وسهول وما الى ذلك مما يبدو ثابتا راسخا صلدا ، ليس إلا الوجه الضـــاحك البراق الخادع لمـــا تجته من بحار نارية ومعادن سائلة وصخور ذائبة من فرط الحرارة، الى آخر ما فى باطن الأرض من بحار محرقة متلاطمة الأمواج • وبما أن التنفس فى النهاية ضرورى على غرار اضطرارنا لأن ننفس عن المرجل فوق النار بزحزحة الغطاء قليلا عن موضعه ، فإنّ الأرض بحاجة دائمة لأن تقوم بالعمل ذاته • وتتمثل عملية زحزحة غطاء المرجل بشأن الأرض فى تلك الزلازل المدمرة والبراكين المحـــرقة • إذ تبحث تلك الحرارة الخيالية الارتفاع داخل الأرض عن متنفس ، وتجده بإرادة

الله تعالى فى الجوانب الضعيفة من القشرة الأرضية التى تحدث فيها الزلازل أو البراكين • يحدث ذلك بإرادته عز وجل كى يتعظ الناس ويعلموا أنهم دائما فى حاجة لأن تحوطهم رعاية البر الرحيم والا لغرقوا فى البر تماما كما يغرقون فى البحر •

ونستطيع أن نقول بشأن قوله تعالى : ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ إننا بصدد رمز ممثل فى بر السلامة لكل أنواع النعم التى يمتن بها عز وجل على عباده وقد هددوا وقتا من الأوقات بسلبهم إياها من صحة وبنين ومال وما إلى ذلك •

ونود بشأن الآية الكريمة التى تتحدث عن البر أن نقف عند مسألتين: الأولى هى أنه اذا تبين أن ثمة عنصرين بارزين يمكن أن يؤديا معا أو أن يؤدى أحدهما الى الغرق فى البحر • وهذان العنصران هما الموج الذى يقلب السفينة أو يملؤها فيغرقها ، والبحر ذاته الذى يبتلع السفينة، فان الآية التى تتحدث عن غرق البر تذكر فى المقابل عملين مقابلين لعنصرى غرق البحر • وهذان العملان هما ابتلاع الأرض للناس فى مقابل ابتلاع البحر لهم ويتجلى ذلك فى الزلازل ، وإرسال الحاصب الذى يؤدى الى الغرق أو الردم بالحصباء وذرات الرمل وما الى ذلك ، فى مقابل الأمواج التى تأتى كالحاصب وما اليه من أعلى •

والمسألة الثانية هى أن الآية الكريمة أشارت الى عمل الزلازل أو الخسف ولم تشر الى البراكين ، ولعلنا تبينا السبب فى هذا وهو أن ظاهرة الخسف يتضح فيها الابتلاع بأكثر مما يتضح مع البراكين • ويمكن أن نضيف سببا آخر هو أن ظاهرة الخسف قريبة من فهم الذين نزل القرآن الكريم بلسانهم والمعنيين بالحديث أول الأمر • فلعل كثيرا منهم لم يسمع عن البراكين التى تثور فضلا عن أن يكون قد رآها رأى العين أو فطن الى ما خلفته من آثار حسية سيئة فى مكان ما •

ومعنى الجزئية الأخيرة : ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلا ﴾ لا يوجد ثمة الوكيل الذى يستطيع أن يطالب بشىء مقابل خسف الأرض بكافرى النعم أو دفنهم بالحصباء أحياء •

واذا كانت عملية الإغراق برا بمنزلة العقاب العاجل ، فان الاغراق بحرا مستقبلا بمنزلة العقاب المتأخر • قال تعالى : ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ •

والحقيقة أننا بحاجة الى أن نقف بمناسبة هذه الآية الكريمة عند عجيبة لغوية تتجلى فى دقة استعمال لفظة قاصف ولفظة عاصف فى موضع آخر • ونمهد لهذه العجيبة بالإشارة الى ظاهرة لطيفة تجيدها اللغة العربية ، وهى ظاهرة اعطاء كل معنى من المعانى المتقاربة المتدرجة حيث القوة أو الضعف لفظة خاصة • فنحن مثلا فى سبيل التعبير عن القوى المتدرجة للريح من الضعف الى القوة نستطيع أن نقول انها نسمت أو خفقت أو سرت أو هبت أو عصفت أو قصفت وما الى ذلك[1] • وهذا يعنى أن العصف أقل من القصف قوة ، لأن من طبيعة قاصف الريح أن يقصف ويكسر ما صادف من سوارى السفن مثلا وما إلى ذلك ولا يشترط هذا فى عاصف الريح لأنه أقل قوة •

فحينما يريد القرآن الكريم أن ينتهى الى اغراق الفلك يستعمل قاصف الريح قال تعالى : ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾ وحينما يريد مجرد التخويف يستعمل عاصف الريح • يكون تارة مضمرا كما فى قوله تعالى فى الإسراء : ﴿ واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾ ويكون تارة أخرى ظاهرا ، كما فى قوله تعالى[2] : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ •

وبعد أن ذكرت السورة الكريمة نعمة حمل الله تعالى للناس فوق الماء رمزا لما وراء ذلك من نعم لا تحصى وموقف جنس الإنسان

---

(١) أنظر هنا اشتات مجتمعات ، عباس محمود العقاد ص٩١ .
(٢) يونس ، ٢٢

الكفور للنعم من تلك النعمة • وبعد أن نصّت ــ من قبل ــ على تكريم الله تعالى لآدم عليه السلام بأن أمر الملائكة بالسجود له بعد أن خلقه من صلصال من حمأ مسنون ونفخ فيه من روحه وحسد ابليس اللعين لآدم عليه السلام ، انتقلت الى تسجيل المعالم البارزة التى من أجلها كان الإنسان خليقا لو قدرها حق قدرها أن يكون خليفة لله تعالى فى الأرض • ولكن جنس الانسان يغلب عليه كفران النعم ، وسينال كل من الشكور والكفور جزاءه • قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ، يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا • ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ •

ومن الواضح أن قوله تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ ذو علاقة كبيرة بقوله تعالى فى هذه السورة على لسان اللعين حسدا لآدم عليه السلام : ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾ وأن قوله تعالى : ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ ذو علاقة كبيرة بنعمة حمل الله تعالى للناس فوق الماء • وفى مقابل التسجيل لهذين المعلمين البارزين من النعم ذوى العلاقة بموضوعى السورة السابقين ، تسجل الآية الكريمة معلمين بارزين جديدين وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ وهذا التقسيم العادل لمعالم النعم البارزة ، بالإضافة الى أنه يعنى التوازن الدقيق بين شقى الكلام فى الآية الكريمة ، هو يعنى ترابط الكلام وتماسك الآيات وأخذ الموضوعات بعضها برقاب بعض •

وحينما نقول ان النعمتين الأوليين اللتين نصت عليهما الآية الكريمة ، قد جاءتا على غرار الإشارة الى النعمتين فى الموضعين السابقين على الآية الكريمة ، فذلك بيان كاف وشاف للسبب الذى من أجله تقدمت الإشارة الى التكريم على الإشارة الى الحمل فوق الماء •

ويبقى سؤال جانبى وهو لماذا تقدمت الإشارة الى نعمة الحمل فى البر على نعمة الحمل فى البحر وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ ؟ والجواب على ذلك هو أننا بالمقارنة بين الحمل فى البر والحمل فى البحر يتضح أن الألصق بالانسان والأكثر هو أن يحمل

برا • ولو أننا قارنا نسبة الحمل بحرا بنسبة الحمل برا لتبين أن نسبة الحمل بحرا ضئيلة بالقياس الى البر • وهذه الحقيقة راعتها الآية الكريمة فقدمت البر على البحر •

فاذا تأملنا الجزئية الأولى فى الآية الكريمة :﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ استطعنا أن نستذكر الكثير من مظاهر تكريم الله تعالى للانسان • أو ليس هو من ذرية آدم عليه السلام الذى كرمه الله تعالى بأن نفخ فيه من روحه وأمر الملائكة أن يسجدوا له سجود تحية وتكريم ؟ بلى • اذن ينبغى أن يكون عند ذلك الانسان الاستعداد لأن يظل خليقا بذلك التكريم • فاذا أحسن الاستفادة من ذلك الاستعداد الفطرى ، وقام بالدور الذى هيأه رب العزة للقيام به فى الأرض بأن يكون خليفة الله تعالى فى الأرض يعبده وحده لا شريك له حق العبادة ويفعل الأوامر ويجتنب النواهى ، فانه سيثبت بذلك أنه خليق دائما بذلك التكريم الذى كان من نصيبه • أما اذا أثبت الانسان غير ذلك فهو خليق أن يرد أسفل سافلين وان بقى له شكل الانسان ومادته • وحيث ان ذرية آدم عليه السلام لم يسلبوا شيئا مما امتن الله تعالى به على أبيهم ، فمعنى هذا أنهم مرشحون ومهيئون كى يقوموا فى الأرض بدور الخلفاء فى الأرض • قال تعالى[1] :﴿ واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال انى أعلم ما لا تعلمون • وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين • قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم • قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ •

وفى إمكاننا أن نذكر من مظاهر تكريم الله تعالى للانسان العقل الذى ميزه عز وجل به والإرادة والقدرة على النطق وباختصار ، خلقه فى أحسن تقويم ، قال تعالى[2] :﴿ والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ﴾ •

---

(١) البقرة ، ٣٠ ــ ٣٣
(٢) التين ، ــ ٤

ومن مظاهر تكريم الله تعالى للانسان نعمة العلم ، وقد أشارت سورة البقرة الى ما خصّ الله تعالى به آدم عليه السلام من علم الأسماء كلها بعد أن جاء على لسان الملائكة الاعتذار بعدم علمهم لها • وحيث إنّ الانسان مهيأ لأن يتعلم فهل له عذر وقد واتته فرصة التعلم أن يبقى جاهلا ؟ لا بطبيعة الحال ، فان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة • ويكفى أن نعرف بهذه المناسبة أن أول ما نزل من القرآن على المصطفى صلى الله عليه وسلم فيه حث على القراءة وإشادة بالعلم • وأوّل ما ينبغى للإنسان أن يعلم أنه عبد لله تعالى خلقه كى يعبده وحده لا شريك له • وإن أمر الله تعالى للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام سجود تحية وتكريم دليل على منزلته عليه السلام الرفيعة العالية ومنزلة ذريته بعد ذلك إذا لم ترتد أسفل سافلين •

وبما أنه ليس بمستبعد أن ينحرف الإنسان أحيانا عن جادّة الصّواب ، فإنّ من مظاهر تكريم الله تعالى له أن باب التوبة مفتوح له دائما على مصراعيه • وكفانا دليلا على ذلك توبة الله تعالى على آدم عليه السلام بعد أن عصاه عز وجل فأكل هو وزوجه من الشجرة التى نهيا عنها عن مجرد الاقتراب منها بإغراء من الشيطان الرجيم الذى نهيا عن طاعته عليه لعنة الله تعالى • قال عز من قائل[1] : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ •

وهذه هى الجزئية الثانية فى الآية الكريمة ، قال تعالى : ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ • وبالنظرة المتأمّلة لما تقع عليه عين الانسان مما خلق الله تعالى ، يتبين أن نعمة الحمل فى البر والبحر بوسائل أخرى يلجأ اليها بقصد الراحة والتخفيف مع القدرة على الانتفاع بالبر مشيا فيه وبالبحر سباحة فيه ، شىء يختص به الإنسان • إذ ينفرد الانسان بالجمع بين القدرة على المشى فى الأرض وبين اتخاذ الأنعام ركوبا • ولا يلجأ الانسان لذلك من قبيل الترف أو التفكه ، لا • ان الأنعام ولا شك جزء لا يتجزأ من احتياجات الانسان الضرورية • وهل يستغنى انسان عن السفر أو التنقل من مكان الى آخر ؟ وهل يستغنى الانسان مهما كان صحيح البنية عن اتخاذ الأنعام[2] ركوبا ، وبخاصة لقطع

---

(١) الحجر ، ٤٩

(٢) بعد اكتشاف وسائل النقل الحديثة تشارك هذه الوسائل الانعام فى وجوب شكر الله تعالى الذى سخر كل ذلك للانسان .

المسافات الطوال • ولو فرض أن وجد الشخص الذى يحلو له أن يمشى على قدميه ، فإلى متى يستطيع أن يتمسك بهذا الشىء الذى يحلو له ، وقد قال عز من قائل[1] : ﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ﴾ ولو فرض أن الشاب اكتفى بالمشى فترة شبابه فما العمل مع الأثقال التى يتكون منها متاعه وحاجياته الى غير ذلك ؟ إن هذه الحقائق وكثيرا غيرها لتحمل كل من ألقى السمع وهو شهيد على شكر الله تعالى الذى خلق من أجل الإنسان هذه الأنعام وسخرها له • قال عز من قائل فى سورة يس[2] : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون • وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون • ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ وقال عز من قائل فى سورة النحل[3] : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون • ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون • وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف رحيم • والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون ﴾ •

ونود أن نقف قليلا عند حظ الانسان من البحر حتى انه استحق أن ينوه بهذه النعمة فى الآية الكريمة • الحقيقة أننا حينما نتأمل حظ الانسان من البحر ، فإنا نتبين أنه حظ موفور وعظيم • وليست علاقة الانسان بالبحر علاقة لهو وتسلية وتزجية فراغ فقط ، انما هى بالدرجة الأولى علاقة منافع وحاجة جد ماسة • ويكفينا أن نعرف أن نسبة اليابسة فوق هذا الكوكب الأرضى صغيرة حقا بالقياس الى الماء • ولو لم يكن البحر مصدرا لأى نفع للانسان لكان ذلك يعنى أن الجزء الأكبر من الكرة الأرضية غير ذى فائدة للانسان • وما أفدحها من خسارة • ولكن ارادة الله تعالى التى أوجدت الإنسان كى يقوم بدور الخلافة فى ارض ما كانت لتسمح بذلك ، ومن ثم كانت المياه مصدر الكثير من النفع للانسان • جاء على سبيل المثال فى سورة فاطر[4] قوله تعالى : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ •

---

(١) يس ، ٦٨
(٢) آيات ، ٧١ — ٧٣
(٣) ٥ — ٨
(٤) آية ١٢

وإنما ركزت آية الاسراء على نعمة حمل الناس فوق المـاء دون سواها من النعم الكثيرة التى ينال الناس خيرها من قبل البحر ، لأن هذه النعمة بالذات هى نقطة انطلاق هذه المجموعة المتماسكة من الآيات.

ونستطيع أن نقول عن هذه الجزئية الثانية : ﴿ وحملناهم فى البر والبحر ﴾ إنها تتخذ نعمة حمل الله تعالى الناس برا وبحرا رمزا لكل ما سخره الله تعالى للانسان خارج ذاته فى السـماوات والأرض . وكأنها تعنى فى جوهرها ما يعنيه صدر هذه الآية الكريمة من سورة لقمان[1] ، قال تعالى : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنـة ، ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هـدى ولا كتاب منير ﴾ وكأنهـا تعنى فى جوهرها أيضا ما أشارت اليه هذه الآيات من سـورة ابراهيم[2] : ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم.وسـخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها. ان الانسان لظلوم كفار ﴾ وكأن الجزئية الكريمة تحث على تأمل كل ما فى الكون . ففى كل شىء له عز وجل آية تدل على أنه الواحد ، فهى تتمشى فى جوهرها مع قوله تعالى فى سورة يوسف[3] : ﴿ وكأين من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ وقوله تعالى فى سورة الذاريات[4] : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ وقوله تعالى فى سورة الملك[5] : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ . وإذا كانت هذه التنبيهات القرآنية قريبة من التعميم ، ففى آيات سورة يس مثلا[6] شىء من التفصيل يجمع بين آيات من الأرض ومن السماء ، قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون .

---

(١) آية ، ٢٠
(٢) آيات ، ٣٢ ــ ٣٤
(٣) آية ، ١٠٥
(٤) آية ، ٢٠
(٥) آية ، ٣ ، ٤
(٦) آيات ، ٣٣ ــ ٤٤

وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون • ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون • سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون • وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون • والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم • والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم • لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون • وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون • وخلقنا لهم من مثله ما يركبون • وان نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون • الا رحمة منا ومتاعا الى حين ﴾.

واذا كنا نقول عن الجزئية الثانية التى تتحدث عن نعمة الحمل برا وبحرا إنها تعتبر رمزا لكل نعم الله تعالى على الانسان الخارجة عن حدود ذاته فانا نستطيع أن نقول ان الجزئية الثالثة فى الآية الكريمة ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ يصح أن تعتبر رمزا لكل نعم الله تعالى على الإنسان داخل حدود ذاته أو التى هى فى حكم ذلك كالدواء والثياب وما اليها •

وفى إمكان الإنسان أن يقارن بين نصيبه من الطيبات من الرزق ونصيب ما عداه مما خلق الله تعالى كى يتبين أنه صاحب الحظ الموفور فى هذا الجانب • فالانسان يأكل الطعام مطبوخا ، وما أكثر الأنواع التى يستطيع معالجتها بالنار ، وما أكثر الأنواع التى يصح له أن يأكلها غير مطبوخة • وباختصار يستطيع الانسان أن يحصى العدد القليل من الأطعمة والأشربة التى حرمها الله تعالى لأن ضررها ثابت فى حقه ، ويبقى وراء ذلك ما لا يكاد يحصى مما أحل الله تعالى له من أنواع الأطعمة الرئيسية أو الثانوية كالفاكهة والأشربة • وينبغى أن نقرر أن الفاكهة مثلا والتى نعتبرها طعاما ثانويا صالحة لأن تقوم بالدور الرئيسى وأحيانا هى فقط التى ينصح لحين باللجوء اليها • ولم يكن ليحدث شىء من ذلك لولا الفوائد الجمة التى وضعها القادر على كل شىء فى ذلك الطعام الذى يعتبر ثانويا فى عرفنا ، وليس رئيسيا كالحبوب أو قريبا من الرئيسى كالتمور •

وحينما نتكلم عن الطيبات من الرزق لا نستطيع الا أن نذكر نعمة الله تعالى على الخلق بانشاء الشجرة الخضراء التى تستخرج النار منها

بسهولة ويسر • قال تعالى فى سورة يس[1] : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر اخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون ﴾ يا لها من عجيبة دالة على قدرته عز وجل • شجرة خضراء تقطر ماء تخرج منها نار محرقة يستطيع الناس أن يأخذوا منها قدر الحاجة للطعام والتدفئة وبخاصة وقت السفر • وقد قال تعالى فى سورة الواقعة[2] : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون • أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون• نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ﴾ والمقوون : المسافرون • فلعل حاجتهم الأكبر الى النار تجعلهم أقرب الى الشكورين للنعم •

وفيما يتصل بالشراب فانا نتوسع فى مدلوله كى يشمل الأنواع الطيبة التى للنار دور فى صنعها أو تهيئتها للاستعمال ، وبخاصة فى حالة جمود ما تشترط سيولته كى يكون صالحا للاستعمال •

والعظيم فى الأمر أن إرادته عز وجل قد شاءت بأن يكون الحصول على ما هو ضرورى لحياة الانسان سهلا ميسورا • ونذكر على التوالى الهواء والماء والطعام والنار • وبما أن حياة الانسان متوقفة على حصوله من الهواء على ما يحتاج له ، قد شاءت ارادته تعالى أن يكون ذلك حقا لكل انسان ولا سلطة لمخلوق على الهواء • فاذا تحولنا الى الماء الذى يعتبر بحق حينما يغيب أعز مفقود ، وحينما يحضر أهون موجود ، فقد شاءت ارادته تعالى أن تجعل هذه المادة الحيوية الضرورية لحياة الانسان من الكثرة وسهولة الحصول عليها للدرجة التى تبدو ليست بعيدة كثيرا عن إمكان الحصول على الهواء • إن الماء موجود بغزارة فى مظانه بحيث يستطيع الانسان أن يشرب منه ويغتسل ويقوم بكل ما ينبغى عليه القيام به من المجهود الذى ينبغى على الانسان أن يقوم به للحصول على الماء ؟ إنه يكاد يكون محصورا فى حمل الماء من مظانه حيث العيون والآبار والأنهار ، وحفظ هذا الماء حتى وقت الحاجة لاستعماله • ويكاد يكون المبلغ الذى يدفعه الإنسان ثمنا للماء انما يدفع فى مقابل استخراج الماء فحمله • ولا يكاد ذلك المبلغ يتخطى الى الماء نفسه • وحينما نتمثل شيئا من الحاجة الضرورية للماء فى كل مرفق من مرافق الحياة ، وكفانا دليلا على ذلك قوله تعالى فى

---

(١) آية ، ٨٠
(٢) آيات ، ٧١ — ٧٣

سـورة الأنبياء[1] : ﴿ وجعلنا من المـاء كل شيء حي ﴾ ونقارن تلك الحاجة الماسة للماء بالمبلغ الضئيل من المـال أو الجهد الذى يقدم فى مقابل الحصول على كميات كبيرة من المـاء ، فاننا ننتهى سريعا الى الوقوف على جانب من الحكمة الالهية التى جعلت الحصول على كل ما هو ضرورى لحياة الانسان بالمجان أو فى حكم المجان ولا يملك المنصف الا أن يحمده عز وجل على نعمه ويشكره على آلائه .

وعلى حد القول : الشيء بالشيء يذكر . فى إمكاننا — بقصد تبيين بعض جوانب الحكمة الالهية التى اقتضت أن يكون الحصول على ما هو ضرورى للحياة سهلا ميسورا ، وتثقل هذه السهولة وذلك اليسر كلما ابتعدنا عن الضرورى الى الكمالى — أن نتخذ مطية لذلك ودليلا عليه المقارنة بين شيئين يقال عن أحدهما انه ضرورى وعن ثانيهما انه أقرب الى الكمالى منه إلى الضرورى . وهذان الشيئان هى الملح والسكر[2] وكى يتبين أن الأول ضرورى والثانى كمالى فاننا نتساءل أيهما الذى له البديل وأيهما الذى ليس له البديل ؟ ان السكر هو الذى له البديل أما الملح فلا . ونضيف الى ذلك أن السكر له بديل طبيعى وأقرب ما يرد الى الذهن تلك الفواكه التى يتسم أكثرها بالحلاوة . ومعروف أن السكر مستخرج غالبا وقديما من قصبه الذى كان الانسان ولازال أحيانا يحلى فمه به من باب الترف والكمال . أما وقد اتضحت هذه الحقائق البسيطة ففى الإمكان أن نقارن ببســاطة بين الملح الضرورى الذى يستطيع الانسان الحصول عليه بسهولة ويسر من البحار أو الجبال وبين السكر الكمالى الذى يحصل عليه الانسان بشيء غير قليل من الجهد . وأن نقارن بين الكمية الكبيرة من الملح التى نستطيع الحصول عليها بدفع مبلغ زهيد من المـال وبين الكمية من السكر ذاتها التى نستطيع الحصول عليها ولكن بمبلغ كبير جدا من المـال . وإذا كنا نقول ان المبلغ الذى يدفع للماء هو فى الغالب مقابل استخراج المـاء وحمله ، فان الشيء ذاته يقال عن الملح . ما أغلى كلا من المـاء والملح فى ذاتيهما وما أزهد المبلغ الذى يدفع فى كليهما لحكمة أرادها الحكيم الخبير . قال تعالى فى سورة فصلت[3] : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين

---

(١) آية ، ٣٠
(٢) لايخفى أن الثانى صناعى .
(٣) آية ، ٩ ، ١٠ .

وتجعلون له إندادا ذلك رب العالمين • وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ •

وهكذا يتبين أن الثمن الذى ندفع فى مقابل ما نشـــترى ، ليس فى الحقيقة الا المقـــابل للتعب الذى يبذل فى استخراج الأشـــياء وحملها ومعالجتها • أما الأشياء ذاتها فانها موجودة فى مظانها والحصول عليها دون ثمن • ولا نستثنى ازاء هذه الحقيقة شيئا واحدا • فالله سبحانه وتعالى انما أوجد الأشياء أو علمنا طريقة استخراجها كى نعمل ونكدح • وقد قال عز من قائل[1] : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور ﴾ •

وتلك الأشياء موجودة بما يناسب حاجة الإنسان ويعمر الأرض • فعلى سبيل المثال بما أن الحاجة الى كميات كبيرة من الحديد والنحاس والصفر أكبر من الحاجة الى كميات كبيرة مماثلة من الذهب مثلا ، تبين أن عثور الانسان على كميات كبيرة من تلك المعادن ممكن بينما الكميات التى يعثر عليها من الذهب أقل بكثير وكثير • وما يعثر عليه من كافة المعادن مكافىء لحاجة الناس • وانما رخص الحديد والنحاس والصفر لأن العثور على الكميات الكبيرة منه سهل ميسور • وهنا نتبين أن الثمن الزهيد الذى ندفعه فى مقابل تلك المعـــادن انما هو فى مقابل المجهود المحدود الذى بذل فى ذلك فى مقابل تلك • وانما غلا الذهب والفضة وما اليهما لأن العثور على الكمية الموافقة لاحتياج الناس يحتاج الى مجهود أكبر وبخاصة فيما يتصل بالذهب ، ولهذا كان ثمن الذهب عاليا لأن المجهود الذى بذل فيه كبير •

ونريد أن نطبق هذه القاعدة على عماد الرزق ، وهو القوت أو الطعام • ونتذكر ابتداءً قوله تعالى[2] : ﴿ وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين » • فليس ايجاد الرزق فقط هو الذى تكفل به رب العزة ، انما تكفل أيضا بنصيب كل دابة منه ، يستوى فى ذلك الانسان وغير الانسان •

---

(١) الملك ، ١٥
(٢) هود ، ٦

وفى سبيل تبيين خضوع الطعام للقاعدة التى وضعناها، فى إمكان الانسان أن يفكر قليلا فى هذا الرغيف من الخبز الذى يراه أمامه صباح مساء ، والثمن الزهيد الذى يبذل فى سبيل الحصول على هذا الرغيف الذى يعتبر عماد الغذاء الانسانى • ألا يتبين الانسان التوافق الحقيقى بين الكميات الضخمة من الحبوب وبين الحاجة الانسانية الملحة اليها ؟ بلى • ولا يخدعنك ما تسمع من زعم لنقص فى الحبوب والثمرات فكل ذلك مفتعل ويتعمد ايجاده والحرص على بقائه أفراد ضعفت فى نفوسهم الوشائج التى تربطهم بأخيهم الانسان • ومن هؤلاء الذين يتعمدون اغ اة كميات هائلة من القمح مثلا فى البحار حرصا على بقاء سعره العالمى مرتفعا أو لا يهتز لواحد من هؤلاء وتر واحد من إحساس أو ضمير وهو يرى أكثر من شعب فوق هذا الكوكب الأرضى يكاد يشرف على حافة الهاوية بسبب المجاعة التى تكاد تبتلعه والذى هو فى أمس الحاجة الى شىء من ذلك الطعام أو القمح الذى يتعمد هذا الفاقد الضمير أو ذاك اغراقه فى الماء انتقاما من هذا الشعب الجائع أو ذاك لأنه حريص على سلامة عقيدته وعلى بقاء ماء وجهه وشخصيته وتراثه •

أو ليست منزلة الحبوب من الانسان غير بعيدة من منزلة الماء ؟ بلى • أو ليست طريقة استخراج الحبوب غير بعيدة من طريقة استخراج الماء ؟ بلى • وهل عمل الانسان يتخطى بذر البذور التى أوجدها الله تعالى لهذه الغاية أساسا فى التربة الصالحة التى أوجدها الله تعالى لهذه الغاية أساسا وسقى البذور بالماء الذى أنزله الله تعالى من المزن والذى جعل تعالى منه كل شىء حى ؟ • واذا كان الثمن الذى يدفع فى مقابل الحبوب ورغيف الخبز يرتفع فى العادة عن الثمن الذى يدفع فى مقابل الماء ، فلأن الحاجة الى كمية من الماء كبيرة أشد من الحاجة الى كمية كبيرة من الحبوب ، ولأن المجهود الذى يبذل مع الحبوب أكبر من المجهود الذى يبذل مع الماء ، ونحن فى حقيقة الأمر انما ندفع ما يقابل المجهود الذى يبذل • بدليل أننا حينما نستخرج الماء بأنفسنا ونزرع بأنفسنا نحصل على كل شىء بدون مقابل • فما واجبنا حينما نأكل رغيفا من الخبز ونشرب كأسا من الماء باردا ؟ واجبنا أن نحمد الله تعالى الذى رزقنا الطعام والشراب والكساء وسخر لنا ما فى السماوات والأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة وأن نعبده وحده لا شريك له جل وعلا •

وحينما يتبين المتأمل أن الطيبات من الرزق تعنى بالدرجة الأولى الطعام والشراب اللذين يستفيد الجسم منهما مباشرة اذ انهما قوام الحياة ، وأن كلا من الطعام والشراب وليد تفاعلات أرضية وجوية تمت بارادة العزيز الحكيم ، فان المتأمل ينتهى الى أن هناك نوعا من التماسك بين الآيات الدالة فى داخله على قدرة القادر على كل شىء وبين الآيات الدالة فى خارجه على القدرة المطلقة ذاتهـا • فلم يكن الطعام طيبا مستساغا الا بسبب الظروف الخارجية المواتية له والتى نذكر منها التربة الصالحة والبذور والمـاء والشمس والهواء • واللطيف فى الأمر أن كل ما تنتج الأرض من الثمرات يسقى بماء واحد • قال تعالى فى سورة الرعد[1] : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحدونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فىذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ والشىء ذاته يقال عن الشراب وعن الهواء وكل ما ينتفع به شخص الانسان مباشرة من علاج وكساء وما الى ذلك •

وفى الوقت الذى تحمل الطيبات من الرزق المتأمل على الربط بين النعم فى داخل الانسان وبين النعم فى خارجه • هى تحمل المتأمل على أن يبصر فى نفســه تمشيا مع قوله تعـالى[2] : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ • فهذا الطعام الذى أوجده الله تعالى للانسان والذى هو عماد حياته ، ما هى العمليات التى يخضع لها منذ أن تكون النعمة فى الفم حتى يتخلص الجسم مما لا حاجة له به منه ؟ اننا حينما نصغى للمتخصصين فى هذه المجالات ونعرف ما يقولون عن الأعمال العظام التى يقوم بها العضو الواحد فى جسم الانسان ، فان كل منصف لا يسعه الا أن يؤمن بالقدرة المطلقة لله الواحد ذى الجلال المتفرد بالكمال جل وعلا • ولا يسعه الا أن يرتل بخشوع قوله تعالى فى سورة الحج[3] : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ﴾ •

---

(١) آية ، ٣ ، ٤
(٢) الذاريات ، ٢١
(٣) آية ، ٧٣

وهذه هى الجزئية الرابعة والأخيرة فى الآية الكريمة ، قال تعـــالى : ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ وهى تحملنا على أن نقول : ها نحن أولاء نعود سريعا الى الظاهرة التى تطبع عددا من الآيات بطابعها ألا وهى ظاهرة التفاضل . انّ بنى آدم قريبون جدا من قمة المخلوقات حيث لا يتقدمهم الا الملائكة المقربون كما ذهب الى ذلك مفسرون . ومعروف أن الملائكة المقربين مفردو الارادة بمعنى أنهم لا يعصون الله تعالى ما أمرهم مطلقا ويفعلون ما يؤمرون دائما ولا يعرفون غير ذلك ، بينما الانسان ثنائى الارادة بمعنى أنه تتنازعه الرغبة فى الخير والميل الى الشر ، وتتجاذبه النفس المطمئنة فيفعل الخيرات والحسنات أو النفس الأمارة بالسوء فيفعل الآثام والإساءات . وقد يثوب هذا الأخير الى رشده ويتوب الى بارئه متجاوبا مع نفســـه اللّوّامة له على فعل السيئات ومع ضميره الذى تنبه من غفلته وعقله الذى آب اليه رشده . وحيث انّ الصالح من العباد صابر على النعماء بشكرها وعن المعاصى تنفيذا لأمر مولاه ، وحيث أن رب العزة له عباده الذين يباهى بهم ملائكته والذين تحدى بهم ابليس اللعين بأنه ليس له عليهم سلطان ، ففى ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نتبين أى فضل من الله تعالى تفضل به على ذرية آدم عليه السلام ، وليت الجميع يقوم بما يجب عليه من شكر الله تعالى المنعم ذى الجلال والاكرام . فهذا هو الذى ينتظر من الانسان الذى كرمه ربه . فمن غير المعقول أن ينتظر من الانسان الأعمال التى تقوم بها المخلوقات الأخرى التى تتأخر كلها عنه فى المنزلة . أيليق بالانسان أن يتخلى عن انسانيته كى يتصرف كما يتصرف الحيوان أو الآلة ؟ لا بطبيعة الحال ، لأنه خلق انسانا وكفى ، فعليه أن يعمل فى دائرة انسانيته . وتأمل اللفتة الكريمة فى صدر الآية الى هذا الانسان ، قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم ﴾ انه ابن آدم الذى كرمه الله تعالى بأن خلقه فى أحسن تقويم وهيأه لمعالى الأمور وجليلها وليس لصغيرها وتافهها . ومن يشابه أبه فما ظلم .

وكيلا تكون للناس حجة فيزعموا الجهل بالتعاليم السماوية ، فقد شاءت ارادة الله تعالى أن بعث الرسل مبشرين ومنذرين . أما الأقوام الذين صادفوا زمن الفترة فلم تصلهم تعاليم السماء ، فهؤلاء يشملهم قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رســـولا ﴾ وانّ ثمّة دعوة واحدة وغاية واحدة لكل رسل الله تعالى هى الدعوة الى توحيد الله تعالى وتطبيق التعاليم السماوية قولا وعملا . وسيثاب يوم القيامة

المحسن ويعاقب المسيء • والى مسئولية الانسان ومصيره أشـــار قوله تعـــالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا • ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل ســـبيلا ﴾ •

جاء فى المثل : وقت الامتحان يكرم المرء أو يهـــان • وحينما يحين وقت اعلان نتائج الامتحان تبيض وجوه وتسود وجوه • ونستطيع أن نتمثل ذلك الموقف الذى يقفه التلاميذ من أستاذهم وهو يعلن عليهم نتائج أعمالهم ويوزع عليهم وثائق امتحانهم أو أوراق اجاباتهم ذاتها وقد رصد عليها الدرجات التى يستحقها كل واحد منهم • ان عملية المناولة والتناول بشأن الطالب الناجح تختلف عنها بشأن الفاشل • فاذا كان التعاطف والرضا والسعادة يحوط كل العملية بشأن الناجح فان التوتر والفتور والقلق يحوط العملية بشأن الفاشل الذى يتلقى أوراقه مشوبا بشيء غير قليل من الاضطراب والأسى والاستياء • ولعله وقد لمح نتيجته ودرجاته المنخفضة جدا لن يجد فى نفسه الرغبة أو القدرة على أن يعيد النظر كرة أخرى فى تلك النتيجة التى بؤرته تذكرها ويقض مضجعه تمثلها • أما الطالب المجتهد الناجح المتفوق فانه بعكس ذلك تماما • كله رضا وسعادة وبهجة وانشراح • يتلقى نتائجه فرحا مستبشرا ولا يكاد يرفع عنها عينيه ، أو يمل من إعادة تأملها كل لحظة وحين أو يسأم من استعادة تلك الذكريات وتعمد اثارتها والتحدث بهـــا كلما كانت الفرصة مواتية لذلك •

واذا كنا نصادف هذه المواقف المتباينة من الرضا أو السخط ازاء هذه الامتحانات الدنيوية البسيطة فكيف بالامتحان الأكبر يوم القيامة حينما يعلن على رؤوس الأشهاد نتائج أعمال البشر النهائية وليس وراء ذلك الاعلان سوى الجنة أو النـــار ؟ وقد صورت الآيتان الكريمتان الموقفين المتباينين فى ذلك اليوم المجموع له الناس المشهود • موقف أهل الجنة وموقف أهل النـــار •

ان كلا من الفريقين يدعى بامامه ، والمراد به كل ما تأتم به طائفة من الناس سواء أكان حقا أم باطلا من أشخاص أو كتب أو معتقدات وما الى ذلك • ولا شك أن ثمة حزبا واحدا فقط هو الناجى • الى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ، وهو الذى يسير وفق تعاليم السماء التى أوحى الله تعالى بها الى رسله حتى كانت الرسالة الأخيرة

رسالة الاسلام ، الدين الذى ارتضى رب العزة للناس كافة، والذى بعث به خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ولا تخطىء طائفة واحدة الفهم حينما يذكر إمامها اذ تعرف دائما أنها هى المقصـــودة .

وتتلقى كل طائفة كتاب أعمالها وتقرؤه . وسبق أن جاءت الإشارة الى هذه العملية فى قوله تعالى : ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ . وها نحن أولاء مرة ثانية أمام الكتاب أو الكتابة والقراءة . وسبق أن انتهينا الى الأعتقاد بأن الكتاب والقراءة رمزان لوسيلة ضبط الأعمال التى قام بها الناس لصلاحية هذه الوسيلة لأن يفهمها بالنظر اليها كل من يطلع عليها ، ولكونها أشهر الوسائل وأقدرها على الضبط والتذكر وقت الحاجة .

ويلاحظ أن أصحاب الجنة يتلقون كتب أعمالهم بأيمانهم دليل السعادة والرضا والاطمئنان ورد فعل للموقف العام الذى كله رضا وانشراح بشأنهم، وللطريقة الطيبة اللطيفة التى تمت فيها عملية ايتاء كتب الأعمال . وهذا الموقف بشأن أهل الجنة قادر على نقلنا بالضرورة الى الموقف المقابل الذى كله سخط واكتئاب بشأن أهل النـــار . وفى استطاعتنا أن نتمثل موقفا عاديا فى حياتنا اليومية يصح أن يتخذ صورة موحية للطريقة التى يتم بهـــا فى الآخرة إيتاء كتب الأعمال أصحاب النـــار . ويتمثل هذا الموقف فى الطريقة التى يعيد فيها الأستاذ المخلص كراسة إجابة تلميذه الفاشـــل الذى ضاع معه تعب الأستاذ وذهب إخلاصه معه أدراج الرياح . أنه ليس بمستبعد أن يرمى الأستاذ كراسة تلميذه عرض الحائط تعبيرا عن سخطه ويأسه من صلاح حال التلميذ . وكفانا دليلا على إمكان تحقق ذلك هذا القول المأثور : ضرب بهذا الشىء أو ذاك عرض[1] الحائط . وهو أساسا مأخوذ من رمى المدرس كراسة تلميذه الفاشل عرض الحائط تعبيرا عن سخطه واستيائه .

وما أكثر الإشارات القرآنية الى تلك الطريقة التى يليق بأصحاب النـــار أن يأخذوا كتب أعمالهم فيها .

وعلى غرار ما يحدث فى حياتنا اليومية حينما يصادف الواحد منا

---

(١) لعرض الجانب والناحية

نجاحا باهرا ويتلقى شهادات تقدير ، فان عينه لا تكاد تريم ولا تنصرف عن تأمل شهادات التقدير هذه ، لأنها رمز مكثف للكثير من الجهد الذى بذله الناجح ، فان هذا الشىء ذاته وأكبر منه يصادف أصحاب الجنة حينما يتلقون كتب أعمالهم • إنّ عين الواحد منهم لا تكاد تتحول عن إدامة النظر فى كتب الأعمال تلذذا واستمتاعا ، فرحا وسرورا ، بهجة وحبورا ، وهى كتب لا تذر صغيرة ولا كبيرة ، وهى تعنى بشأن أصحاب الجنة أن الجنة لهم مفتحة الأبواب والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار • كما أنها تعنى العكس بشأن أصحاب النـــار • قال تعالى : ﴿ يوم ندعو كل أناس بامامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرأون كتابهم ولا يظلمون فتيلا • ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ •

ولم تَرُضَ الآية الكريمة للضّال عن سواء السبيل بغير صفة العمى فى الدنيا والآخرة • وإنّ الزيادة بشأن العمى يوم القيامة ﴿ وأضل سبيلا ﴾ لتغرينا بالمقارنة بين نوعى العمى ، عمى العينين وعمى البصيرة من ناحية ، وبين العمى فى الدنيا والعمى فى الآخرة من ناحية أخرى •

وأول ما يلاحظ بالمقارنة بين عمى العين وعمى البصيرة أن عمى العين معذور صاحبه فيه ، لأنه لا دخل له فى كونه أعمى ، بخلاف عمى البصيرة ، فعلى الرغم من أنه فى جوهره أشد بشاعة من عمى العينين ، فان كثيرا من الناس يقبلونه ، بل يرضون به ، بل يسعدون • وليس ذلك فحسب ، بل إليه حثيثا يسرعون ! ويمثّل هذه الفئة الضالة كفار مكة على عهـــد الرسول صلى الله عليه وسلم •

أما وقد غادر أعمى البصيرة هذه الحياة الدنيا وهو قرير العين بعماه وصح أن يقال عنه يوم القيامة إنّه أعمى • فما أهمّ الفروق بين أعمى العينين وأعمى البصيرة ؟ أهم الفروق أن أعمى العينين يجد فى الأغلب الأعمّ قائدا أو مرشدا • أما أعمى البصيرة فليس له يوم القيامة قائد من أعماله ولا مرشد ، فاستحق فى آية الإسراء هذه الزيادة : ﴿ وأضل سبيلا ﴾ • قال عز من قائل فى سورة طه[1] ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ •

---

(١) آيات ، ١٢٤ — ١٢٦

(١٤)

أنواع من العمى وكيفية تصدى المهتدين لها وجزاء المضلين

قال تعالى : ﴿ وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا • ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا • وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا • سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا • أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا • ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا • وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا • وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا • وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا • واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر كان يئوسا • قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا • ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا • ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا اليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا • الا رحمة من ربك ، ان فضله كان عليك كبيرا • قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس الا كفورا • وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه • قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا • وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا • قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا • قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم انه

كان بعباده خبيرا بصيرا • ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما ، مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا • ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا • أو لم يروا أن الله الذى خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون الا كفورا • قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى اذا لأمسكتم خشية الانفاق وكان الانسان قتـــورا ﴾ •

من مظاهر عمى مشركى مكة حرصهم على فتنة صلى الله عليه وسلم عما أوحى الله تعالى اليه ولكن العناية الالهية كانت معه صلى الله عليه وسلم دائما • قال تعالى : ﴿ وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا • ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا • اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ •

إن هذه الآيات الثلاث ، تحكى شيئا مما صادف المصطفى صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة • فقد حرص المشركون على فتنته عليه الصلاة والسلام عما أوحى الله تعالى اليه من قرآن ، لغاية فى أنفسهم ، وهى أن يفترى على الله تعالى غير ما أوحى اليه من تبديل الوعد وعيدا أو الوعيد وعدا • هذا ما اقترحته ثقيف من أن يضيف إلى الله ما لم ينزل عليه[1] •

فهل ركن المصطفى صلى الله عليه وسلم شيئا قليلا للظالمين أنفسهم ؟ لا بطبيعة الحال لأنه عز وجل معه دائما، ولم يكن تعالى ليتخلى عن حبيبه صلى الله عليه وسلم طرفة عين • قال تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا ﴾ ومعروف أن لولا حرف امتناع لوجود كما يقول النحاة • وقد امتنع الركون للظالمين شيئا قليلا من قبله صلى الله عليه وسلم لوجود التثبيت منه تعالى •

وهل تم صرفه صلى الله عليه وسلم وفتنته من قبل المشركين عما أوحى اليه ؟ لا لم يتم شىء من ذلك • وهل قارب الظالمون صرفه صلى

(1) البحر المحيط ، ٦ / ٦٤

الله عليه وسلم وفتنته ؟ لا لم يقاربوا ذلك . وحيث إن شيئا مما أراد الظالمون لم يتم، فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن وقتا من الأوقات للظالمين خليلا أو رفيقا . ولفظة خليل فى الآية الكريمة تبين الى أى مدى كان الكفار مستعدين لأن يتخذوا منه صلى الله عليه وسلم أكبر صديق ، وخليل لو أنه حقق شيئا قليلا جدا من رغائبهم وأهوائهم .

ولا شك أننا بصدد درس قرآنى خليق بكل صاحب بصيرة نيرة أن يستفيد منه ويأخذ العظة والعبرة . وهو درس ذو جوانب متعددة ، وكلها يهدف الى وجوب أخذ كل مسلم حذره من أعداء هذا الدين الذين يتربصون به دائما الدوائر ، والتنبيه الى أن أية غفلة من جانب المسلمين لله رب العالمين تجر عليهم الكثير من الويل والدمار وغضب الجبار . فعليهم أن يكونوا حذرين ويقظين دائما وعلى ثقة مطلقة من أن أعداء هذا الدين لا يمكن أن يكون منهم الا الكيد لهذا الدين وتربص الدوائر به وبأهله . ولا يلهينه عن هذه الحقائق عذب الحديث ولا لين المس . فما أشد روغان الثعلب وما أخطر نكز الأفعى وليس وراء نعومة جسدها وراء .

لقد أعطى كفار مكة من طرف لسانهم كل حلاوة ومن مسهم كل نعومة ولين بقصد أن يضربوا الاسلام فى الصميم ، وردّ الله تعالى كيدهم فى نحورهم فظهروا على حقيقتهم . وكان التبيين فى القرآن الكريم نظريا للجزاء الذى كان من الجائز أن ينال من يركن للظالمين لو أن شيئا قليلا من ذلك قد تم . ولكن الله سلم . وحينما يتم تبيين الجزاء فى صيغة الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ فلا شك أن هذا التبيين والتلويح بالعذاب الشديد ، ينبغى أن يكون منه أكبر نصيب لكل من تسول له نفسه من المسلمين الركون للظالمين .

وتأمل الأدب القرآنى فى مخاطبته صلى الله عليه وسلم . فليس ثمة النص الصريح على العذاب أو العقاب ولكنهما مفهومان ضمنا ، لأن السياق يقول بهذا ولأن جملة أذقنا تستعار عادة لمثل هذه المناسبة . والمعنى أن الذى يكون منه الركون الى الظالمين وهو الذى لم يكن يتوقع

ذلك منه لسمو نفسه وشفافية روحه ورجحان عقله ، فان جزاءه ينبغى أن يكون غيرجزاء الآخرين الذين يقلون عنه فى الاختصاصات والامتيازات . والحقيقة أن مثل هذا التنبيه القوى والتحذير الشديد ، كيلا تكون منه صلى الله عليه وسلم أدنى مخالفة للمثل الأعلى المنشود ، من الأدلة على كون القرآن الكريم تنزيل رب العالمين .

ونتذكر بهذه المناسبة ما جاء فى سورة الأحزاب خطابا لأزواج المصطفى صلى الله عليه وسلم اللاتى لسن كغيرهن من النساء ، فكان الخطاب لهن شديد اللهجة ويتلاءم مع منزلتهن الرفيعة العالية باعتبارهن أمهات المؤمنين . ومعنى القول : ﴿ لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ﴾ لأذقناك ضعف عذاب غيرك فى الحياة الدنيا وضعف عذاب غيرك فى القبر ويوم القيامة .

وفى أنفسنا أن نتأمل معنويا وصوتيا هذا الكلام الذى يتكون من آيات ثلاث . انه كلام يتركب من قسمين رئيسيين ، بنى القسم الثانى فيه على الأول ، كما بنى كل من القسمين بناءً فكريا وصوتيا متماثلا .

فالى البناء الهرمى للمعانى أولا . مما يلاحظ ابتداءً أن كلاً من قسمى الكلام يتكون من ثلاثة أجزاء يعتبر الجزء الثالث بمثابة النتيجة أو الخاتمة . وقد بنى الجزء الثانى فى القسم على الأول . وهذا هو القسم الأول ، قال تعالى : ﴿ وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذن لاتخذوك خليلا ﴾ . وهذا هو القسم الثانى ﴿ ولولاك أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا . اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ .

ان النتيجة أو الخاتمة فى القسم الأول : ﴿ واذن لاتخذوك خليلا ﴾ هى الغاية التى كان كفار مكة حريصين على الوصول اليها وذلك فى مقابل قيامه صلى الله عليه وسلم بالافتراء على الله تعالى ، ويأبى عز وجل أن يتم شىء من ذلك . ووسيلة مشركى مكة حسب اعتقادهم أن يعملوا جاهدين وبكل الوسائل على أن يفتنوه صلى الله عليه وسلم عما أوحى الله تعالى اليه . وحينما نسأل بشأن كل من الجزئيات الثلاث سؤالا بعينه يكون الجواب دائما بالنفى . ففيما يتصل بالنتيجة لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم للكافرين وقتا من الأوقات خليلا . وفيما يتصل

بالغاية القريبة لم يتمكنوا مطلقا من حمل المصطفى صلى الله عليه وسلم على أن يفترى على الله كذبا • وفيما يتصل بأولى الوسائل وأقرب الغايات لم يتمكنوا من فتنته صلى الله عليه وسلم ولا صرفه عما أوحى الله تعالى اليه • وهذا الفشل الذريع الذى كان من نصيب مشركى مكة دائما ، يحملنا على القول إنّ هذا القسم من الكلام يقضى المرة بعد الأخرى على أوهام مشركى مكة وترّهاتهم • فاذا عرفنا بعد ذلك أن القسم الثانى من الكلام يتحدث عن حقائق ثلاث ، هى الفصل وليست بالهزل ، وذلك على غرار أوهام مشركى مكة الثلاثة فى القسم الأول ، استطعنا أن نقول : إنّ مجىء الحقّ بعد الباطل والجدّ بعد الترّهات ما يجعل الحق أشد وضوحا والحق أصلب عودا وما يغرى بالمقابلة المعنوية أو الفكرية ، وبخاصة اذا كان ثمة تلاؤم صوتى من نوع معيّن ينظم عقد شقى الكلام • وبناءً على ذلك يمكن القول : ان كلا من القسمين يسير فى اتجاه معاكس للآخر • وهى معاكسة أو مغايرة طبيعية لأن الحق غير الباطل والجد غير الترهات • فاذا كانت السلبية من سمات أجزاء الكلام الثلاثة فى القسم الأول فإنّ الإيجابيّة من سمات أجزاء الكلام الثلاثة فى القسم الثانى •

وأوّل مظهر للايجابية الراسخة الصّلدة تثبيت الله تعالى لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم • وما قيمة كل سلبيات المشركين وأوهامهم بالقياس الى هذا التثبيت الإيجابىّ منه عز وجل • قال تعالى : « ولولا أن ثبتناك » وانّ إيجابيّة التثبيت فى الجزئية الأولى نجَمَ عنها إيجابية عدم الركون منه صلى الله عليم وسلم للظالمين • وكانت النتيجة أنه عليه الصلاة والسلام برىء من أدنى لوم أو تثريب • وقد اقتضى البناء التدريجى للكلام أن تكون الجزئية الثالثة من جنس الجزئية الثانية المجاورة لها فكان الكلام العنيف عن العقاب النّظرىّ الشّديد • والمراد هنا وضع قاعدة للعقاب الأليم الذى سيكون من نصيب الذين يركنون من المسلمين للظالمين فى كل زمان ومكان •

ويلاحظ أن الجزئية الثالثة فى كل من القسمين تبدأ بلفظة « إذن » التى تفيد من الوجهة المعنوية أننا بصدد نتيجة أو خاتمة فى كلّ وهو ما حدث فعلا •

واذا كانت النتيجة أو الخاتمة فى القسم الأول قصيرة : « واذن

لاتخذوك خليلا ﴾ فانها فى القسم الثانى تميل الى شىء من الطول أو قل انها نتيجة ثنائية التركيب : ﴿ اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ وينبغى أن نقرر أن النتيجة فى كل واحدة فى الجوهر أو الفكرة .

والحقيقة أن التحول من النتيجة المفردة التركيب فى القسم الأول الى النتيجة الثنائية التركيب فى القسم الثانى ، خير مهيىء للنتيجة الثلاثية التركيب فى الآيتين الكريمتين التاليتين . وهما تسيران معنويا وصوتيا وفق المجموعة السابقة من الآيات، كما أن الهدف من المجموعتين مشترك . قال تعالى : ﴿ وان كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ .

ولعله تبين هنا أيضا أن النتيجة أو الخاتمة تبدأ بلفظة إذَنْ على غرار القسمين السابقين وأنها تحقق فيها ما سبق أن أشرنا اليه من كونها تراعى التدرج فى تركيب أجزاء للكلام .

اذا كانت النتيجة الأولى مفردة فكرة وتركيبا . وكانت النتيجة الثانية مفردة فكرة ثنائية تركيب . فان النتيجة الثالثة فى هذا القسم من الكلام ، معمقة لظاهرة البناء الهرمى أو التركيب التصاعدى للكلام ، فانها اذا كانت مفردة فكرة على غرار النتيجتين السابقين فانها ثلاثية تركيبا . هذه هى النتيجة الأولى : ﴿ واذن لاتخذوك خليلا ﴾ وهذه نتيجة القسم الثانى الثنائية التركيب : ﴿ اذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا ﴾ وهذه هى نتيجة القسم الثالث الثلاثية التركيب : ﴿ واذن لا يلبثون خلافك الا قليلا . سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا » . فسبحان القادر على كل شىء الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

واذا كان من الثابت أن المجموعة السابقة من الآيات مكية نزلت قبل الهجرة فان الآيتين الأخيرتين حولهما خلاف بين المفسرين . منهم من قال انهما مكيتان ومنهم من قال انهما مدنيتان . والذى يبدو والله أعلم أنهما مكيتان على غرار ما سبقهما من آيات ، فان بينهما وبين المجموعة السابقة ارتباطا وثيقا يقترب من درجة الالتحام . ويبدو ذلك

فى الناحيتين المعنوية والتركيبية • وسبق أن أشرنا الى الناحية التركيبية أو ظاهرة تلاؤم الأصوات ذى الطابع الواحد فى هاتين الآيتين وفى الآيات الثلاث الســـابقة •

أما الناحية المعنوية فان أهم ما يلاحظ أن الخطاب فى كل هذه الآيات موجه الى المصطفى صلى الله عليه وسلم وفى طريقة واحدة وبخاصة فى مطلع الكلامين بقصد تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام وإشعاره أن الله تعالى لن يتخلى عنه مطلقا ولن يسلمه لأعدائه • حقاً إنّه عليه الصلاة والسلام بحاجة الى تثبيت فؤاده دائما • ولكن الحاجة أشد من ماسة لهذا التثبيت فى مكة لأن شوكة الكفار هناك لمّا تُخْضَد قبل الهجرة بعد • فاذا أضفنا أن الآيتين الكريمتين تتحدثان عن حرص أعدائه على استفزازه بقصد إخراجه من الأرض التى هو فيها ، وقارنا بين كفار مكة القويِّ الشوكة آنذاك وبين سكان المدينة المنورة بعد الهجرة حيث كان الأنصار يمثلون القوة دائما بينما اليهود والمنافقون ضعفاء دائما ، تبين أن الأرجح أن تكون هاتان الآيتان الكريمتان مكيتين وقتا وغاية ، لأنهما تنطبقان على كفار مكة الذين كانوا يجمعون بين الرغبة فى إخراج المصطفى صلى الله عليه وسلم من بين ظهْرانيهمْ وبين الاحساس بالقدرة على ذلك •

وحينما نذهب الى أن هاتين الآيتين الكريمتين مكيتان ، فانا نتمثل من سيعترض علينا منبها الى الآية الكريمة من ســـورة محمد[1] التى تشير الى أن كفار مكة قد أخرجوا المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة ، قال تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ وما أسهل الرّدّ على هذا الاعتراض وما أوضح الوفاق بين الآيتين الكريمتين • ان الآية الكريمة فى سورة محمد تشير الى الإخراج بينما الآية الكريمة فى سورة الإسراء تشير الى الاستفزاز والإزعاج والإثارة بقصد الإخراج • وشاءت ارادة الله تعالى أن تحول بين مشركى مكة الأقوياء القساة القلوب الغلاظ الأفئدة وبين التمكن من استفزازه صلى الله عليه وسلم وازعاجه واثارته على الرغم من أنهم قاربوا التمكن من كل ذلك لولا نصر الله تعـــالى لرسوله الذى حال دون ذلك • أما الإخراج من مكة فقد كان • ولكنْ

(1) آية ، ١٣